زمن الطوفان

ثلاثية الماء و الدم و النفط

زمن الطوفان

ثلاثية الماء و الدم و النفط

رواية

رسلان علاء الدين

تنويه: الرواية مبنية على احداث و شخصيات واقعية

اسم الكتاب: زمن الطوفان (ثلاثية الماء و الدم و النفط) / رواية/.

المؤلف: رسلان علاء الدين.

سنة الطباعة :2015.

كمية الطباعة :1000 نسخة.

الترقيم الدولي: ISBN 978- 9933- 22- 088- 4

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سورية ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: 00963 11 5627060

00963 11 5637060

تلفاكس: 00963 11 5632860

ص. ب: 259 جرمانا

www.darrislan.com

إهداء

إلى كل من بقي في أقدم بلاد الله،

في مدنها و قراها

يدافع بصدره العاري

عن إنسانية الإنسان.

لمحة عن مكان و زمان الرواية

تدور أحداث الرواية في بلاد تدعى سوريا، تقع منذ القدم على ملتقى طرق التجارة العالمية و على ملتقى قارات العالم القديم الثلاثة.

نشأت بها الحضارة الإنسانية في أقدم أشكالها، ففيها تم اختراع الأبجدية و النوطة الموسيقية، ومنها أبحرت السفن الفينيقية حول العالم، امتدت هذه البلاد قديماً من جبال الأناضول شمالاً إلى صحراء سيناء جنوباً، و من البحر المتوسط غرباً إلى الصحاري العربية شرقاً، كانت بلاد ما بين النهرين أو ما يعرف اليوم بالعراق تعد في كثير من الأحيان جزءاً منها، حيث لا يوجد أي فاصل طبيعي بينهما، ونتيجة لخصوبة تربتهما أطلق عليهما أسم الهلال الخصيب.

نشأت في شمال سوريا أول إمبراطورية في التاريخ و هي الإمبراطورية الآشورية، منذ أكثر من ثلاثة آلاف و ستمئة عام، و هي من أعطى اسمها للبلاد، فأشوريا حورت مع الزمن و أصبحت سوريا، كل تلة تقريباً في سوريا تحتوي تحتها على أنقاض مدينة أو قرية قديمة .

انتشرت الديانات السماوية الثلاثة منها، اليهودية و المسيحية و الإسلام، و إلى اليوم يسكن البلاد خليط كبير من القوميات و اتباع الأديان و الطوائف المختلفة، كثيرٌ من الحروب و الصراعات العالمية بين الشرق و الغرب جرت على أرض هذه البلاد.

فالبعض يعتقد أن الحروب الصليبية لم تنتهي و يريدون إكمالها اليوم، و يعتقد البعض أن هيكل سليمان الأسطوري يجب أن يتم إعادة بناءه على أرضها، كما و يريد آخرون إعادة إحياء الخلافة الإسلامية.

بعد عصور الخلافة الزاهية و التي ترافقت مع عصور الجهل و الظلام و الفقر في أوروبا، دخلت البلاد في حالة من الانحطاط الحضاري، و بعد الاحتلال التركي و الذي استمر قروناً طويلة جاء الاحتلال الأوروبي و قسم البلاد إلى عدة دول: سوريا، لبنان، الأردن، فلسطين، العراق.

في دولة سوريا نشأت دولة عاصمتها السياسية دمشق و عاصمتها الاقتصادية حلب، أكثرية سكانها عرب و البقية أكراد و سريان و أرمن و تركمان و شراكس و غيرهم، امتدت حدودها شمالاً مع تركيا و جنوباً مع الأردن و فلسطين و غرباً مع لبنان و شرقاً مع العراق، يقطع سوريا نهر الفرات من الشمال إلى الشرق..

هبت رياح الفتن على هذه البلاد فدفع الكثير من الناس مصائرهم على مذرى هذه الرياح، فلنرى بعضاً مما جرى على أرض أقدم بلاد الله.

الفصل الأول

ما قبل الطوفان

كمقدمة للفصل الأول

في يوم من أيام غضب الرب، بعد أن عظمت الذنوب و كثرت الخطايا، جمع الرب في عليائه رسله و أنبيائه، و أرسلهم إلى معشر البشر فإما التوبة و الصلاح و إما العقاب الشديد و الطوفان الهائل.

فذهب رسول المحبة إلى قومه فأكثر في نصحهم و ووعظهم...

كما ذهب رسول الشريعة إلى قومه فذكرهم بوصايا الرب...

وذهب رسول الكتاب إلى قومه و ذكرهم بكلمات ربهم التي حفظوها و ما اتبعوها..

كذلك ذهب كل الأنبياء و الرسل إلى أقوامهم و اتباعهم..

وكان هناك نبي مغمور يكاد لا يوجد له ذكرٌ بين سجل الأنبياء و الرسل، ذهب إلى قومه في بلاده النائية، فوقف بين تلالها و هضابها المقفرة، جمع شعبه الفقير و لكن الشجاع و قال لهم بعد أن صمت طويلاً: أمامكم برهة لتتعلموا السباحة .....فالطوفان آتٍ.آت.

البداية

استيقظ خليل في المستشفى، كان التخدير ما زال يمسك بأعضائه، رويداً رويداً بدأت تعود الذكريات و تعود معها قدرته على السيطرة على جسمه، أحس برغبة شديدة في أن يخرج ما بجسمه من فضلات لكنه لم يستطيع التحرك.

كان يحاول أن يفهم ماذا حل به، لقد مر سابقاً بأيام كهذه في المشفى، فلما يتكرر ذلك ؟ نعم في صيف العام العاشر بعد الألفين قرر أن يقوم بالعملية الجراحية التي لطالما أجل القيام بها، لم تكن حاسمة له، تشوه رافقه منذ الولادة تعايش معه و حتى تنذر عليه، كما و أصبح الجميع يقبلوه كما هو.

مع تطور عمله داخل المجال الإعلامي كان منظره يشكل العقدة الأكبر له، ولكي ينتقل من معدٍ مشهود له بكفائته إلى مقدمٍ و محاورٍ يراه الناس على الشاشات، قرر القيام بهذه العملية.

لكن ذلك كان منذ زمن، فهو قد أصبح مراسلاً و مذيعاً تلفزيونياً ، فلماذا إذا هو هنا في هذا المشفى؟

فجأة تذكر، إنها الحرب، البلاد في حالة حرب، إذاً هو مصاب، لكن كيف حصل ذلك؟ بدأ العرق يتزايد فوق جبهته، أحس بأن صوته سينفجر داخل رأسه، ظهرت الممرضة، سمع أصواتاً لم يفهمها تماماً، أدرك أنهم يتكلمون عنه ، فهم أنه عاد إلى وعيه، أصدر رجل يلبس الأبيض تعليمات بصوتٍ مبحوحٍ للممرضة، رأى كيساً معلقا أعلى سريره ثم انقطع الضوء وساد الظلام و الصمت.

أقدم بلاد الله

في بدايات صيف العام التاسع بعد الألفين جلس مجموعة من الأصدقاء في مقهى بجانب النهر في ظل الأشجار الخضراء، كانوا لتوهم قد تناولوا عشائهم و كانت أمزجتهم مرتفعة في هذا الجو الجميل .

كانت البلاد أقدم بلاد اللّه و كان النهر شريان حياتها الأزلي الذي خطه الخالق في عرض الصحراء، لم تكن الأرض صحراء دائماً، قبل سبعة آلاف عام كانت الأرض مستنقعات و كان النهر سيلاً هادراً ، اليوم هو يجري بهدوء في أسفل الوادي الضخم الذي حفره خلال آلاف الأعوام، قد تعب و يكاد يتلاشى في الصيف القائظ و لا يعود لعنفوانه متذكراً أيام شبابه إلا في الربيع عندما تذوب الثلوج فوق رؤوس الجبال البعيدة هناك في الغرب.

قبل سبعة آلاف عام سكن الإنسان الأول المغاور في أعالي التلال، و عندما رأى الماء ينحسر نزل إلى السهل و بنى مدينته و منذ ذلك التاريخ و إلى اليوم لم ينقطع الإنسان عن سكن هذه المدينة، حروب حصلت، غزوات و مجاعات و

مجاحات ألمت، تركت جراحها و ذهبت، أما الإنسان فبقي هنا. بقي و لكن بقيت معه حكمة الرب، أن اللّٰه شديد العقاب و الطوفان الذي آتى مرة و دمر القوم الأولين و مدنهم و قراهم قد يعود يوماً.

كان الأصدقاء الأربعة يضحكون على طرفة من طرف عبد الرحمن، جاء النادل بالأراكيل، سأل سامر :

- شو شباب منلعب ورق؟

ساحباً نفساً عميقاً من أركيلته، في أثناء ذلك كان خليل يرتب أوراق برنامج يعده ليقدمه غداً للتلفزيون الوطني، نظر كمال من فوق دخان أركيلته:

-ملينا من الورق، فتحولكن شي حديث شباب، يعني مو معقول منجتمع بس مشان ناكل و نشرب و نأركل و نلعب ورق..

تابع كمال بعد أن هبت نسمة خفيفة حملت برودة معها من ماء النهر:

- ياللّٰه ما أحلى هالربيع..

ضحك عبد الرحمن :

- أي لكان عمي، العشاق دائما بيشوفوا كل شي

جميل و الجو عليل... قالها مقهقها.

ركز كمال نظرته به:

-حبيبي أنت بتعرف رأي، هي البلد أحلى بلد بالدنيا و ما بتركها لو بيعطوني كنوز الدنيا، تغربت عنها مدة و بيكفيني، و هذا بالمناسبة رأي قبل ما حب و بعده.

صفر عبد الرحمن:

- منفهم من كلامك ممكن تبطل تحب ...

نظر كمال إلى الماء الدافق وتنهد:

-ما حدا بيعرف شو بتخبيلنا الأيام و مو دائماً الحب بيعيش للأبد.

قال سامر متهكما:

-أكيد حبيبي للأبد ما بيضل غير الزعيم.

تبادل الرفاق الثلاثة النظرات، كانوا يعرفون أن سامر له نشاطات معارضة للحكم، و كان من مناصري جمعيات المجتمع الأهلي، و حقوق الإنسان، و غيرها من المسميات البراقة التي أهلت علينا من الغرب المبدع، و التي وجب علينا، نحن الشرق المتخلف، أن نقبل بطروحاتها ككلام المرسلين.

قال خليل و هو ينظر إلى أوراقه و يستمر في ترتيبها:

- لكن هذا الزعيم أفضل من الذي سبقه، و الدليل على ذلك أنك تستطيع أن تُلمح التلميح الذي قلته دون أن تخشى من أن يتم اعتقالك كما في أيام الزعيم السابق، كما أننا نستطيع أقلها أن نتناقش في السياسة و أحوال البلد دون أن نبات ليلتنا في بيت خالتنا.

و لا تنسى أن البلد في بحبوحة و مثال ذلك هذا صديقنا كمال، يتقاضى خمسين آلف في البنك الذي يعمل فيه، بينما في أيام الزعيم السابق كان يتقاضى ثلاثة آلاف في البنك الحكومي.

فأجابه سامر محتداً كعادته:

-لا تختبئ خلف أصبعك، أنت تعمل في الإعلام الحكومي و تعرف الحقائق، هل تستطيع أن تنشر و لو ربع الحقيقة عن مافيا رجال الأمن و كبار المتنفذين في البلد، هل تستطيع أن تنشر حقيقة الفساد الذي يمارسه الضباط من رشاوى يتقاضوها من الجنود الفقراء ومن سرقة طعامهم و من عدم اهتمامهم بواجباتهم، هل تستطيع أن تكتب عن الرشاوى التي يتقاضاها شرطي المرور عن

كل مخالفة، و شرطي المغفر عن كل تبليغ، و ثم يتقاسم عناصر الشرطة مع ضباطهم كل هذا، هل تستطيع أن تنتقد نظامنا القضائي الذي نخرته الرشاوى و البيروقراطية و المزاجية و غيره الكثير...

ترك خليل أوراقه قائلا:

-لا تعمم أحداثاً فردية على كامل الصورة يا صديقي، هناك مرتشون و فاسدون و هناك ضباط و مسؤولون و قضاة وطنيون و شرفاء، أصابع يدك ليست كلها متشابهة، و على رأي المثل (إذا خليت خربت)، و لا تنسى أن القيادة السياسية تحاول إصلاح و تطوير نواح كثيرة، و لكن النتائج ستأخذ وقتاً لتظهر.

قهقه عبد الرحمن:

-أنا متفق مع سامر بالعموم، و لكنني أظنه منزعجاً لأنه مطلوب للخدمة الإلزامية و لا يريد أن يذهب ليخدم في الجيش كالكثيرين غيره، و أظنه يساهم بالفساد الذي ذكره من خلال الرشاوي و الهدايا التي يقدمها كل فترة إلى رئيس شعبة التجنيد لكي يجد أعذاراً لتأجيله ...

فرد سامر :

- و أنت يا أفندي كل ما بتخالف نظام المرور بتدفع رشاوي للشرطي و بتدفع كمان بغير محلات ، ياللّه خليها بلا فضايح..

قهقه الرفاق و فجأة و دون أن ينتبهوا لأنفسهم سكتوا جميعاً و لم يبقى غير صوت تدفق الماء في النهر و أصوات الليل .

تنهد كمال:

- لماذا يقولون أن اللّه عندما يعاقب قوماً ظالمين يرسل لهم الطوفان، أعتقد أنها محض أسطورة، في بلادنا الماء نادر و يعني الحياة و الخير، قد يكون في بلاد أخرى الماء يتسبب بالكوارث أما في بلادنا فالماء كله خير..

لقاء مع أستاذ قديم

كان العام العاشر بعد الألفين عاماً مشهوداً في مسيرة خليل الناصر المهنية، فها هو قد بدأ يحصد ثمار ما زرعه خلال سنوات من العمل الدؤوب في مجال عمله الإعلامي، كانت الدنيا مقبلة في عينيه و كان بحاجة إلى زاد روحي لكي يتمالك نفسه و يعود إلى حالة التوازن التي بدأ يحس أنه يفقدها، لكي يتحرر من حالة نشوة جعلته يحس بنفسه يطير فوق الأرض و ليس يسير عليها، الأن فهم لماذا يقولون سكرة النجاح ، كلاهما، الخمر و النجاح يفتل الرأس...

في هكذا لحظات كان يلجأ إلى أستاذه القديم في الجامعة، وصل دون موعد مسبق أعتذر مقدماً هدية يعرف أن أستاذه لا يقدر أن لا يقبلها، كتابين جديدين، رواية و كتاب فلسفي، تصفحهما الأستاذ و هو يقدم له كأس المتة، مؤشراً له أن يصب الماء من الأبريق الذي كان بينهما على الطاولة.

سأله الأستاذ مقهقهاً:

-ماذا أراك فقدت اهتماماتك بالصحافة الاقتصادية و السياسية التي تعمل بها و اتجهت إلى عالم الرواية و الفلسفة؟

رد خليل مبتسماً ابتسامة خفيفة:

-ألست أنت يا أستاذي من علمتني أن الرياضيات و الفلسفة في منطقهما شيء واحد، سوى أن الرياضيات تتعامل بالأرقام و الفلسفة بالكلمات .

رد الأستاذ و هو يصب الماء في كأس المتة:

-نعم هذا الكلام صحيح...

تابع خليل:

-و أما الرواية فالحياة قصيرة و لن نعيش بها إلا تجربتنا ، و كل رواية نقرأها فهي حصيلة تجربة حياة إنسان آخر، فبكل رواية نعيش حياة أخرى و نكتسب تجربة جديدة.

ابتسم الأستاذ ابتسامة خفيفة تحت شاربه الكث، كان خليل يعيد كلاماً علمه إياه هو نفسه سابقاً.

بعد السؤال عن الأحوال و الأهل و بعض المجاملات المعهودة، طرح خليل لأستاذه أفكار البرامج التي كان يعمل على إعدادها ، كان في مشروعه الطموح يبحث عن

نقاط الخلل و الضعف في البلاد، محاولاً أن يعلل عدم قدرتها على تحقيق تنمية حقيقية.

سأل الأستاذ:

-هل أنت تبحث عن أسئلة لأجوبة عميقة أم أنك ستوصف الظواهر التي أمامك.. هذا ما سيحدد عملك .. هل ستحاول البحث عن مواطن الخلل لتظهرها، أم ستحاول أن تعرف الأسباب و النتائج هنا لب الموضوع...

أجاب خليل:

-أظن أنه عمل متكامل، يبدأ بتوصيف الظواهر و توثيقها، ثم رويداً رويداً نتعمق لنبحث عن الأسباب التي أوصلتنا إلى هذه الحالة، و من الأسباب قد نجد حلولاً على حسب مقولة (الدواء من جنس الداء).

نظر الأستاذ نظرة بعيدة إلى الأفق ثم نقل بصره إلى خليل:

-إن هذا طريق صعب، أنت تعرف ذلك، و لكنه الطريق الوحيد إذا أردت أن تحترم نفسك و عملك.. لكن الأسباب تكون أحياناً عميقةً جداً أو بعيدة جداً و قد تكون مؤلمة، نخاف أن نعترف بها، أو خطيرة جداً لكي نعلنها.

سأله خليل فجأة:

-هل أنت متفائل بمستقبل البلد؟

أجاب الأستاذ بحزم و كأنه يقطع شيء:

-لا...التفاؤل ضرورة لنستمر و لكني غير متفائل، خاصة على المدى القريب.

سكت خليل منتظراً تتمة أو شرحاً لهذه اللا ، و التي علقت في فضاء الغرفة بإحساس يكاد يكون مادياً لوجودها.

تابع الأستاذ:

-إذا أردت أن تعرف الحاضر يجب أن ترجع إلى الماضي... منذ ستة عقود حصلت بلادنا على استقلالها ، كان عدد السكان حينذاك ثلاثة ملايين مواطن، لا أريد أن أقول لك أن المشكلات بدأت هنا ، فبلادنا و مجتمعنا كان به ترسبات من عهود التخلف و الاستعمار الطويلة، كنا مجتمعاً متخلفاً محافظاً ، عمل الاحتلال بنوعيه الشرقي و الغربي على تجميد حالة بلادنا و عدم تطويرها ، هكذا كان يسهل عليه إدارة بلادنا من خلال بعض الوجهاء و رجال الدين، لكن بعيد الاستقلال حصلت طفرة كبيرة في بلادنا ، و ها بعد ستة عقود بلغ عدد السكان ثلاثة و عشرين مليون، لقد كان سبب هذه الزيادة الهائلة و التي

قاربت العشرين مليون ببساطة هو تحسن الخدمات الصحية و بخاصة في الأرياف، فبعد أن كانت عشرة بالمئة من النساء يمتن عند أو بعيد الولادة، و بعد أن كان نصف المواليد لا يصلون إلى عمر الخمس سنوات، و بسبب انتشار الخدمات الصحية المجانية من الدولة انخفضت النسب السابقة إلى أقل من واحد في المئة، المجاعات التي كانت تودي بآلاف الناس انتهت و خاصة عندما قدمت الدولة الخبز للمواطنين بسعر مدعوم، و أمنت الاستقرار الغذائي، فلم يعد أحد يموت من الجوع.

سأل خليل :

-هل تعتقد أن هذه الزيادة السكانية الهائلة استنزفت موارد البلاد الاقتصادية؟

أجاب الأستاذ:

-ليس تماماً، المشكلة في الكيفية التي تطور بها اقتصادنا و و ليس في الأرقام المجردة، أنت تعرف أن مجتمعنا مجتمع زراعي و كان الأولاد بالنسبة إلى آبائهم يد عاملة مجانية، كانوا إلى ذلك عزوة في مجتمع ما زال به من العشائرية الكثير، و عندما كان عدد السكان

مستقرا أو يتزايد بمعدلات بسيطة كان الوضع متوازنا، حصلت المشكلة بعد الاستقلال و بالأخص في الأرياف المحافظة، حيث كان الزواج من عدة نساء هو الشائع و يتحدد فقط بقدرة الرجل المادية، فخذ مثلاً افتراضياً، قبل خمسين عام و بعد الإصلاح الزراعي و توزيع أملاك الإقطاعين على الفلاحين، رجلٌ في قرية يملك أربعمئة دونم أرض، تزوج أربع نساء و أنجب عشرة أولاد من كل امرأة، نصفهم ذكور، تزوجوا و أنجب كل واحد منهم من نسائه عشرة أولاد .

خلال جيلين و إذا استثنينا الإناث اللواتي في العادة لا يتم توريثهن الأراضي الزراعية، أصبح هناك بدل المالك الواحد - عشرين ضرب عشرين - أربعمئة مالك كل واحد يملك دونم أرض، هكذا مساحة لا تكفي لقيام إنتاج زراعي فظهرت لدينا فئة كبيرة في الريف لا تملك فرصة العمل، منهم من هاجر إلى أحزمة البؤس حول المدن الكبرى، و منهم من هاجر إلى دول الخليج فعاد بالمال وبعقلية أشد تخلفاً، و منهم من بقي في قراهم التي أصبحت فجأة قرية بعدد سكان يفوق الخمسين أو المئة آلف نسمة ليست بقرية

بل مدينة بعقلية القرية، بسلبيات العقلية الريفية و دون إيجابياتها ، توظف البعض في الحكومة برواتب متواضعة فأدمنوا الفساد و الرشوى.

سأل خليل:

-هل أفهم أنك من أنصار الموقر مالتوس الذي دعى إلى قيام الحروب بشكل دوري، للتخفيف من عدد السكان و عودة الأمور إلى الاستقرار من جديد؟

ابتسم الأستاذ:

-منذ بداية حديثي و أنا أنتظر ملاحظتك هذه، الموقر مالتوس عاش قبل فترة طويلة و زمانه غير زماننا و لا يمكن أن اتفق معه، و لكن هناك بذور حقيقة في فلسفته، لاحظ ما أسباب نشوب الحرب العالمية الأولى و لاحقاً الثانية، كانت ألمانيا هي الأمة الأكثر فتوة في أوروبا و بمعدلات زيادة سكان كبيرة، أي تفوق نسبة نمو السكان نسبة نمو الاقتصاد.

أرجع إلى نوعية هذه الأجيال الجديدة في بلدنا، لقد حصلت على تغذية رخيصة و تعليم رخيص وطب رخيص، و لكن كانت سوية هذه الخدمات منخفضة، أي بالعامية

(أي كلام) فحصلنا على مجتمع نصف متعلم، اضاع ثقافته، اكتسب الثقافة الاستهلاكية الغربية، و لم يكتسب أخلاقيات العمل و السعي نحو الابداع و احترام القانون من الغرب ... جيل فارغ يمكن لأي إيديولوجيا متطرفة أن تجرفه معها.. ببساطة لقد حصلنا على الكثير من الوقود و لم يبقى سوى أن ننتظر النار...

كمال

كان كمال الجردي يمر باضطراب نفسي كبير، قد يكون أكبر اضطراب مر به في حياته، و التي كانت رتيبة نوعاً ما، أنهى كلية الاقتصاد بتخصص محاسب توظف في مصرف حكومي، عندما جاء به الدور للذهاب إلى الجيش سافر إلى إحدى دول الخليج النفطية، عمل خمسة سنوات، عاد، دفع بدلاً نقدياً عن الخدمة العسكرية، اشترى شقة في ضاحية سكنية، قدم أوراقه إلى مصرف خاص افتتح حديثاً في البلاد، كانت سنوات العمل في الخليج جواز سفره للعمل في هذا المصرف، عين مديراً لقسم في أحد فروع المصرف.

بدأت قصته في أحد الأيام عندما عينت موظفة جديدة في المصرف، (فاتن) اسم على مسمى، فتنة عصفت به، في مجتمع مازالت به التقسيمات الطائفية نابضة تحت السطح و عندما نظن أنها أصبحت من الماضي، نفاجئ بها حية تنتصب كجبل شامخ أمامنا، خاصة عندما يتعلق الأمر بموضوع الحب و الزواج لاحقاً، لذا تردد كثيراً في

الإفصاح عن حبه لها لكن كان للحب اليد الطولى، يتذكر تماماً ذاك اليوم، كان يوم عمل اعتيادي و كان الود المكبوت ينمو كشجرة باسقة بينه و بين فاتن، استوقفها في الردهة و سألها مبتسما:

-ماذا تفعلين اليوم مساء بعد العمل؟

جاوبته:

-لا شيء محدد، كالعادة قد يكون بعض الأعمال المنزلية، فأنا بيتوتية من البيت للعمل و بالعكس.

سألها بلطف:

-هل من الممكن أن أتشرف بعزيمتك للعشاء أو لنشرب فنجان قهوة في أي وقت يناسبك.

اضطربت قليلاً و ابتعدت عنه لبرهة و لكن عيونها التي أضائها ضوء خفي قد فضحتها، قالت:

-ليس اليوم قد يكون من الممكن الأسبوع القادم ..

قال ملهوفا:

-متى .. عفوا في أي يوم؟

-دعني أفكر و أخبرك..

و ثم مشت بدلال خفي لم يلاحظه أحد غيره..

في هذا اليوم تبادلا النظرات عشرات المرات مع ابتسامات خفيفة قد يكون أحدٌ لم يلحظها ، و قد يكون أحس بها زملائهم فتبادلوا النظرات مع الابتسامة.

فاتن

بعد عدة أيام التقى كمال و فاتن الساهر في مطعم في سفح الجبل الشامخ المطل على أقدم مدن اللّه، جلب معه باقة ورد أحمر و كانت ترتدي ثوباً به من الأحمر و الوردي، كان كمال يكاد يقسم لو أن عشتار تجسدت في امرأة لكانت أقل فتنة من فاتنته.

كان يريد أن يوصلها إلى المطعم بسيارته الحديثة و التي حصل على قرض من المصرف لشرائها، إلا أنها اعتذرت منه بلباقة، فهم الأمر، ففاتن كانت كل يوم تأتي إلى العمل في سيارة حكومية، حيث كان والدها ضابطاً في منصب مهم، فلم يشأ أن يحرجها.

مضى الوقت في اللقاء الأول كما تمر الأحلام سريعاً...

حاول أن ينمق حديثه ففضحته اللهفة و حاولت أن تظهر البرود ففضحها اللون الأحمر على خديها، عندما أمسك يدها بلطف لم تسحبها فكانت اللمسة أبلغ من كل الكلمات.

تتالت اللقاءات بينهما في مطاعم متنوعة، كان الحب

يكبر بينهما و كانت الآمال تكبر، و كان الخوف من المستقبل ينمو كذلك. سألها في احد اللقاءات:

-متى يمكن أن أطلب يدك من أهلك..

اضطربت ثم قالت:

-دعني أمهد للموضوع مع والدي.

كانت فاتن تعرف والدها، كان مهيوب الجانب في عمله، تاريخه العسكري انطبع في وجهه و سلوكياته، كانت تعرف صرامته و لكن كانت تعرف أن لا شيء في الدنيا يوازي عند ابو أحمد بناته الثلاثة، و اللواتي كان يعتبرهن ورود حياته، فكان يخاف عليهن من نسمة الهواء.

في مساء هذا اليوم انتظرت فاتن والدها، لحسن الحظ كان مزاج ابو أحمد مرتفعاً حضرت له فاتن الأركيلة و وضعتها على التراس، احضرت الشاي و الفواكه و جلست أمامه كان في فمها كلام، فمازحها أبو أحمد:

-شايف هي مقدمات، إذا في عندك كلام تفضلي يا وردة..

فقالت:

- بابا في شب بدو يجي يشوفك ..

قهقه أبو أحمد:

-خير خير شو المناسبة.

أجابت بدلال:

-بابا أنت حددلوا موعد و بتفهم الموضوع منوا..

في اليوم المحدد جاء كمال إلى منزل أهل فاتن، كان يرتدي بدلة رسمية، وسيماً كان، مربوعاً بقامة متوسطة و بنية رياضية، رغم أن أبو أحمد في داخله لم يخفي إعجابه بهذا الشاب، إلا أن رده كان بالرفض، فهو لم يكن ذاك العريس الذي كان يرسمه لتفاحة قلبه فاتن.

المجتمع لا يرحم كان يقول في نفسه دائماً، و الحب وحده لا يكفي لنجاح الزواج، الاحترام و التكافؤ أهم، و الحب يأتي مع العشرة.

أبلغ أبو أحمد فاتن أن تنسى أمر هذا الشاب، نظرت إلى والدها نظرة قوية كانت المرة الأولى التي تتحدى نظرة والدها قالت:

-لك أن ترفض و لكنني لن أتزوج أحداً غيره .. ولمعت الدموع في عينيها ..

لم يجاوب أبو أحمد لكنه كان قد أصدر حكمه الذي

لا رجعة فيه.

مرت علاقة كمال و فاتن بعدها في مرحلة عصيبة ، كان الصراع في داخلها كبيراً ، كانت تراه كل يوم في العمل فيورق الأمل، و كانت تنظر في وجه أبيها في المنزل لعلها ترى بوادر للتغيير فلا ترى إلا صخرة صوان.

في يوم من الأيام قدمت فاتن طلب نقل من فرع المصرف الذي تعمل به إلى فرع آخر للمصرف، آخر شيء رأته فاتن و هي تغادر مبنى المصرف، عندما حنت منها التفاتة إلى الخلف، وجه كمال، كانت تكاد تقسم أن الدموع كانت تملئ أحداقه الحمراء.

عبد الرحمن

كان عبد الرحمن العبدي أقل رفاقه تعليماً، لم يجعله أحد من الأصدقاء يتحسس من هذا، إلا أنه هو في اعماق نفسه كان يحس بعقدة من نوع ما اتجاه هذه القضية .

لم تكن حياته دائما تسير حسب رغبته، من أسرة كبيرة كان، لديه أكثر من عشرة أخوة و أخوات و زد على ذلك كان والده متزوجاً من امرأتين، من بلدة في ريف العاصمة كانت أصوله و كذلك كان مسكنه بها، ملك أبوه أرضا زراعية لا بأس بها دخل جزء منها في التنظيم العمراني فأصبحت الحالة المادية أقرب إلى الغنى، لكن والده لم ينسى يوماً أيام شبابه عندما كان يأتي بالخضار و الغلال على دابته من الريف إلى المدينة بثيابه الرثة القروية و يضطر أن يبيع غلاله بأرخص الأسعار للتجار في أسواق المدينة، كان التجار يلبسون حللاً مزخرفة و جديدة، كانوا دائماً يرمقونه بنظرة السيد للأجير الفقير..

يقول المثل القديم (ابن العز إذا جاع فأربعين سنة حتى يشعر بالجوع و الفقير إذا شبع فأربعين سنة حتى يحس بالشبع)

كانت هذه حال أبو عبد الرحمن، فلم تبدوا النعمة عليه، و بقي الجوع الدفين في داخله، فاتسمت تصرفاته بالبخل، زد على ذلك لم يؤمن كثيراً بالعلم، و كانت التربية الدينية هي التربية الوحيدة التي يريدها لأولاده، خمسة من أولاده الذكور الستة دخلوا إلى المدارس الشرعية، الوحيد الذي خالف هذا التوجه كان عبد الرحمن.

ذهب إلى العاصمة و درس في ثانوياتها و هناك التقى بأصدقائه الذين ارتبطت بهم حياته، لكن الضريبة كانت مرتفعة، كان عليه التنقل لمسافة طويلة كل يوم ذهاباً و إياباً، كان عليه أن يعمل في ورشة لميكانيك السيارات، في أيام العطل و الصيف و حتى تغيب كثيراً من الأيام عن المدرسة بضغط صاحب الورشة و الذي ما كان يقبل بهكذا صبي ورشة لولا المهارة الفائقة التي ابداها عبد الرحمن في هذه الصنعة.

في نهاية المرحلة الثانوية لم يتمكن عبد الرحمن من دخول الجامعة كباقي أصدقائه فدخل إلى معهد متوسط صناعي، و بعد الخدمة العسكرية في أحد معامل وزارة الدفاع رجع عبد الرحمن إلى حياته المدنية و رفاقه.

كانت تسير حياته صباحاً في وظيفة حكومية في مرآب وزارة حيث كان مساعد رئيس القسم الفني، كان رئيس القسم مهندساً لا يفقه شيء في الميكانيك فكان مساعده هو المدير الفعلي للمرأب الكبير، مئات السيارات و الأليات كان يحركها عبد الرحمن . هو من يحدد السيارات التي تحتاج للصيانة و نوع قطع التبديل، يحدد السيارات التي تذهب في الرحلات الطويلة أو القصيرة و خطوط حافلات نقل الموظفين و سيارات خدمة المدراء.

كان لدى عبد الرحمن قدرة اجتماعية ملفتة فأصبح لا غنى عنه لدى كل من سائقي المرأب من جهة و لدى المسؤولين في الوزارة، كان السائقون يسرّون له بمشكلاتهم فكان دائماً حاضراً، أنت يا أبو فلان زوجتك حامل بحاجة إلى نقود فها وضعت اسمك في الرحلات إلى المحافظات، و التي تدفع الوزارة المكافآت السخية للسائقين عنها، أنت يا أبو فلان لديك عرس ابنك خد سيارة فاخرة و اتركها يوماً معك لزفة العروس و أنا ادبرها و هكذا سارت الأمور..

كان المسؤولون كذلك لا غنى لهم عن عبد الرحمن، عبد

السيارة تصرف بنزين، عبد العجلات أصبحت قديمة، فكان عبد دائماً حاضراً يصلح و يبدل من مستودعات قطع الغيار بسخاء..

احتاج تجار قطع الغيار و أصحاب ورش الإصلاح المتعاملين مع المرأب كذلك لعبد الرحمن، فجرت الهدايا و الأموال بين يديه..

في أحد الأيام دعاه أحد كبار أصحاب ورش التصليح إلى سهرة في نادٍ ليلي..

أحس عبد الرحمن نفسه سابحاً في دخان الأراكيل على طاولات كستها الشراشف الحمراء و قناني البيرة و العرق و المازيات، احس نفسه في ليالي آلف ليلة و أصوات الموسيقا الشرقية الصاخبة تحرك أجساد فتيات النادي بدلع و أنوثة..

هكذا نوادي كانت مخصصة في الأغلب للموسرين من الأرياف و سواح المتعة العرب..

كان لدى أغنياء المدن و المتنفذين و أرباب السلطة نوادي أخرى، كانوا يدّعون أنها أكثر رقيا فيأتون بالفتيات من اوروبا الشرقية و المغرب، و يضعون موسيقا غربية بدل

الطرب الشعبي، لكن بالنسبة لعبد الرحمن كانت هذه النوادي هي صورة للجنة على الأرض.

جاء الباشا عبد الرحمن ، طاولة الملك عبد الرحمن، أركيلة المعلم عبد الرحمن...

حقاً هنا كان يحس عبد الرحمن نفسه ملكاً من ملوك الزمان..

مع ذلك بقي الهاجس الديني موجوداً لدى عبد الرحمن، فلم يقطع صلاة الجمعة جماعة في جامع بلدته، و حتى عندما تعرف إلى إحدى فتيات الملهى لم يقبل أن يقيم علاقة معها إلا بعد أن كتب كتاب شيخ دين بها.

علم أنه لن يستطيع أن يجلبها إلى بلدته المحافظة، فأستأجر لها شقة مفروشة في ضاحية من ضواحي المدينة، حاول أن يثنيها عن العمل في النادي الليلي، أن يستأثر بها، منّاها بالحياة الزوجية الهانئة و الأولاد، و للمفارقة لم يستطع هو نفسه أن يتوقف عن ارتياد النادي الليلي، و بعد عددٍ لا يحصى من الخلافات و أعباء مالية كبيرة دفعها عبد الرحمن انتهت علاقتهما بالطلاق.

لقاء مع مسؤول

لم يتأثر خليل كثيراً بكلام معلمه، في أوقات لاحقة سيتذكر خليل مراراً كلامه المتشائم و لكن ليس الآن...
أما في العام العاشر بعد الألفين كانت هموم خليل مركزة على شيء آخر تماماً. كان نشاطه المهني يأخذه في اتجاه آخر..

كان الطاقم الحكومي الجديد في البلد قد اتبع سياسة الانفتاح الاقتصادي، و بعد فترة عدة سنوات امتلأت البلد بالبنوك الخاصة و شركات التأمين الخاصة والجامعات و المدارس الخاصة و .. و الخاصة..

كانت هذه نقلة كبرى في تاريخ البلاد، مجالات مهمة بقيت منذ عقود أي منذ محاولات بناء نظام إشتراكي تحت سيطرة الدولة، و ها عادت الاستثمارات الخاصة إلى البلاد و فتحت لها الأبواب و شرعت لها القوانين المساعدة .

تمكن خليل من خلال اتصالاته الحصول على مقابلة مع أبي ناصر، كان أبو ناصر أحد الأعمدة في السلطة لم يكن منصبه حكومياً بل حزبياً و هذا يعني إلى حد ما

أمنياً، الوزراء كانوا يأتون و يذهبون، و أبو ناصر باق في مركزه، بل كان مسؤولاً عن ترشيح المدراء و القيادات المختلفة في أجهزة الدولة، كان له سلطة غير ظاهرة و لكنها محسوسة و فاعلة.

رحب أبو ناصر بخليل في مكتبه، مدح أسلوبه في العمل، أدهش خليل باطلاعه الدقيق على أغلب ما كتبه و قدمه في الإعلام، ظهر متواضعاً ، ترك مكتبه و جلس مقابل خليل.

كان هذا الاستقبال فاتحة علاقة مديدة بين أبي ناصر و خليل، في لقاءات عديدة كان أبو ناصر يوجه خليل، فيؤكد له أهمية موضوع ما لكي يكتب خليل عنه، أو يقلل من أهمية قضية فيعزف خليل عنها، كانت العلاقة تداعب طموح خليل فلم يكن من السهل الحصول على صداقة رجل كأبي ناصر، بينما أبو ناصر فلا أحد يعرف تماماً بماذا يفكر، كلاعب شطرنج محترف كان أبو ناصر يحسب عدداً كبيراً من الخطوات إلى الأمام كان يرسم عدداً كبيراً من السيناريوهات في رأسه و يحطات لأعداء حقيقين أو محتملين و يستخدم كل الأسلحة المتاحة

و يتكيف لكل الظروف.

في أحد اللقاءات سأل خليل أبي ناصر عن جدوى السياسة الاقتصادية الجديدة للحكومة.

ضحك أبو ناصر، أبو ناصر بتاريخه الطويل من أستاذ مدرسة و ضابط احتياط في الستينات إلى قيادي حزبي في السبعينات إلى وزير في الثمانينات إلى ركن من أركان السلطة ما بعدها، تلون من اشتراكي إلى قومي إلى ليبرالي معتدل، لم يعتبر نفسه أنه لا مبدأ له بل كان يعتبر نفسه وطنياً يخدم بلده بحسب ما تقتضيه الظروف المتغيرة:

- خليل إن العالم يتغير من حولنا و لا يمكن أن نبقى جامدين، خد مثالا في الإعلام يتهموننا أن إعلامنا هو إعلام السلطة أو إعلام حزب، و يقولون أن لغة خطابنا لغة خشبية، هنا تكمن مهمتكم أنتم رجال الإعلام لكي تغيروا هذه الصورة، و من جهتها القيادة تنظر إلى الواقع بصورة شاملة إن الاقتصاد الاشتراكي لم يقدم النتيجة المرجوة، لا ضير أن نطّعمه بتجارب القطاع الخاص دون أن نمس بإنجازات القطاع العام ودون خصخصته، أنت تعرف

هذه سياستنا منذ الثمانينات، الموضوع أننا زدنا الهامش المتاح للحركة أمام القطاع الخاص، إن انفتاحنا على كل التجارب الاقتصادية ساهم في صمودنا و لم يجعلنا ننهار عندما انهارت الكتلة الاشتراكية.

-سيدي ما رأيك بالكلام الذي يتداوله الشارع أن هذا الانفتاح جاء لحساب عدد محدد من رجال الأعمال و رجال السلطة المرتبطين معهم؟

-الناس تتكلم دائماً، ما ضير وجود رجال أعمال وطنين يقومون بمشاريع كبيرة و يكسبون أرباحاً وفيرة، أليس هذا هو جوهر اقتصاد السوق، الربح و المنافسة؟ ثم إذا كان عدد من أبناء المسؤولين يقومون بمشاريع خاصة في البلد فهذا حقهم، طالما أنهم لا يخالفون القوانين و يدفعون الضرائب، ثم أليس من الأفضل أن يقيموا مشاريعهم داخل البلد بدلا من ان يهرّبوا اموالهم إلى الخارج؟

-و لكن أليس هناك احتكارات و خاصة في مجالات الاتصالات و الطاقة ؟

-أكرر لك، الناس تتكلم دائماً، و كل من يعمل في قطاعي الخليوي و النفط سيتكلمون عنه أنه يحصل على

عقوده بسبب تواطؤ السلطة أو فسادها ، إذا كان لديك أي اثباتات قانونية ضد أي فعالية قدمها للقضاء أو لي مباشرة و أنا متأكد أنه ستتخذ الخطوات اللازمة لحسابها.

-هناك شخص يعمل في كل المجالات و هو من أقارب رأس السلطة في البلد و جميع الأبواب مفتوحة له و الناس تتساءل لماذا؟

-ماذا لم يتسائل الناس كم فرصة عمل اتاح الرجل للاقتصاد الوطني، إن الرواتب في مؤسساته هي الأفضل بين مثيلاتها ، تعامله مع موظفيه ممتاز، يغطي بمشاريعه الخيرية أبناء الريف و المدينة الفقراء، إذا هو لم يقم بهذا النشاط فسيأتي غيره و قد لا يكون له نفس الولاء للبلد ، لا تنسى إن الاتصالات مسألة شديدة الخطورة و ترتبط بالتجسس، جاءتنا عروض من شركات عديدة رفضناها لأن هذه الشركات مملوكة لأشخاص ولائهم لدولة معادية لنا و تحتل أرضنا.

-هناك دولة أخرى تحتل أرضاً لنا و هي أكبر و أقدم من الأرض المحتلة التي نناضل لاسترجاعها فلماذا اليوم ننفتح اقتصادياً و سياسياً عليها؟

- الظروف تتغير و يجب أن نكسب أكبر عدد من الحلفاء لمواجهة العدو الرئيسي لنا و ليس تشتيت جهودنا في عدد من الجبهات.

عندما انتهى اللقاء كان خليل يفكر في اجابات أبي ناصر، هل كان الرجل مقتنعاً بما يقول أم أنه يقدم له بشكل غير مباشر أسس الخطاب الإعلامي الذي يجب أن ينتهجه في عمله؟

سأل خليل نفسه سؤالا هل أبو ناصر جزء من شبكة الفساد؟ الرجل بالتأكيد ليس فقيراً و لكنه ليس فاحش الغنى كغيره من المسؤولين، أولاده ليس لديهم شركات أو استثمارات ، لم يسيء إلى المواطنين في شيء كغيره من المسؤولين و أبنائهم، ثم أنه إنسان وطني بكل تأكيد و هذا ما كان يطمئن خليل.

ربيع الجنون

في العام الحادي عشر بعد الألفين بدأت تجتاح بلاد العرب حالة من الغليان و الهياج، سماها مجنون ما بربيع العرب، و إذا كان هذا المجنون قد جاء من الغرب، فالأحداث اللاحقة أظهرت أن العرب هم المجانين الحقيقين و أن هناك قوة ما في العالم تقود هذا الجنون المنظم.

تحركت قطعان من الشبان تارة تنادي بالمجتمع المدني و الحريات و تارة بتطبيق الشريعة، كان التمويل يتدفق بسخاء على هذا الحراك و غطى الإعلام الفضائي هذه الأحداث على أنها ثورات رائعة ضد الاستبداد، و تكاد تقف في صف واحد إن لم تتقدم على الثورات المشهودة عالمياً كالفرنسية و الروسية و غيرها.

أحد المهمشين أحرق نفسه في بلد الزيتون، في العادة كان الإعلام الخليجي لا يغطي هكذا حادث و في أقصى الحالات يقولون إنه معتوه مسكين، فجأة

أصبح بطلاً قومياً أشعل شرارة الثورة.
كان الإسلاميون يعتبرون وفق الشريعة أن من يقتل نفسه حرقاً أو بأي وسيلة أخرى فهو كافر و يدخل النار، و إذ بهم يصطفون خلف راية هذه الثورات.
بعد أن أُشعلت النار جعلها من أشعلها ككرة اللهب تنتقل من بلد إلى بلد في تسلسل محكم، و للمفارقة فقد حصل أنه في بلد لم يكن دوره قد أتى لتنتقل إليه كرة النار بعد، أحرق أربعة شبان أنفسهم في الساحات العامة في ظرف أسبوع، لم يكترث أحد في الإعلام الخليجي، مرق الخبر سريعاً في شريط أخبار بعض المحطات، المحطات الكبرى و التي تدّعي الموضوعية تكلمت عن الموضوع لنصف دقيقة في نشرة أخبار واحدة ثم تناست الموضوع.
لقد كان هذا الزمن زمن اعادة اكتشاف قدرات برمجة المجتمعات من خلال الاعلام، تقنيات الإعلام الحديث طُبقت لقيادة هذا الجنون إلى هاوية الفوضى العارمة. بدأ القادة العرب يتهاوون الواحد بعد الآخر، أحدهم أخذ أمواله و هرب بطائرته و أخر أودع

مستشفى السجن و آخر سحل في الشوارع بعد اغتصابه و أخر نظمت له تسوية فذهب في رحلة علاجية طويلة إلى الخارج و سلم سلطاته.

كان كثير من أصدقاء خليل من مختلف الدول العربية يتصلون بخليل: متى ستبدأ الثورة المباركة لديكم؟ كان خليل يحاول التهرب إلى أن الأمور في كل بلد مختلفة و هناك اعتبارات موضوعية لا تتوفر في بلاده لهكذا ربيع.

الذي أدهش خليل هو الثقة التي كانوا يتكلمون بها أن هذا الربيع سيأتي إلى بلاده، في مستقبل الأيام تحقق هذا الذي كانوا يتكلمون عنه، كثيراً بعدها سأل خليل نفسه: هل كانوا يعرفون ظروف بلده أفضل منه؟ أليس هو الإعلامي المنخرط في قضايا مجتمعه و الشديد الحساسية تجاه ميول الناس؟ أم أن الوهم الإعلامي الذي خلقته دوائر عالمية غطى المنطقة كغيمة أعمت عقول المثقفين العرب قبل البسطاء و عطلت المنطق و جعلت ما يريده الغرب يبدو كقدرٍ لا مفر منه؟

روزا

كان لدى خليل صديقة اسمها روزا و هي إعلامية من بلد المليون شهيد، لم يعرف خليل كيف تدرجت علاقته بها، لم تكن صارخة الجمال لكنها جذابة و مثقفة و جريئة، التقاها في مؤتمر في بلادها شارك به، جلس معها لوجبة غذاء ثم عشاء ، ثم نشأت بينهما علاقة حب ، رغم أنهما لم يتزوجا بشكل رسمي.

كانت بدايات الموضوع بالنسبة لخليل كمغامرة عاطفية على هامش حياته المهنية، و لم يعتقد أن الموضوع سيتطور أكثر من ذلك، أدهشته سرعة العلاقة و عفويتها، لم تمر بالمراحل المعهودة في بلاده من لقاءات و مواعيد و مراسم زواج تقليدية.

آتت روزا إليه في الشقة و بقيت معه أسبوعاً، ظن خليل أنه عندما سيرجع إلى بلده سينتهي الموضوع، و لكن بعد نصف عام جاءت روزا إلى مدينته و مكثت شهراً معه في شقته الصغيرة .

كان خليل ميالاً إلى نمط الحياة الغربي و هكذا

علاقة كانت مريحة له فلا التزامات كبيرة و لا مشاكل و تشعبات عائلية.

لكن خليل كان رجل موقف و رغم أنه احس بأنه ليس هو من سعى للعلاقة، و أنه لم يخطط لعلاقة جدية و طويلة الأمد، و لم يكن بناء أسرة من أولوياته التي كانت مركزة على عمله الإعلامي، فعندما أعلمته روزا أنها حامل، ذهب معها في اليوم التالي إلى المحكمة و ثبت زواجه بها.

كان خليل قد حصل مؤخراً على مبلغ مالي جيد عن آخر برنامج قام بإعداده لإحدى الفضائيات العربية فقرر أن يستبدل سيارته القديمة بسيارة أحدث و بهذه المناسبة فقد دعى روزا إلى العشاء في مطعم ريفي.

يحيط بأقدم مدن الله طوق من البساتين و الحدائق يجعل من المدينة واحة خضراء كبيرة على أطراف البادية، درج أهل المدينة على تقضية أوقات راحتهم في البساتين و الحدائق يتناولون طعامهم بها و يتنشقون الهواء النقي.

في السنوات الأخيرة أنشأ رجال الأعمال عددا كبيراً

من المطاعم ما بين الأراضي الزراعية فكانت تجمع طابع الفخامة و بساطة الريف و كانت جلساتها محببة إلى قلب خليل و روزا.
دخلا المطعم و كان المطعم على هيئة بحيرة اصطناعية بها زوارق في وسطها موائد طعام و يحيط بها الشلالات و نواعير الماء و الأشجار الخضراء و نباتات الزينة الزاهية.
كانا ملفتان للنظر، خليل في منتصف الثلاثينات ارتدى بدلة رسمية و قميصاً أسود، ترك زرين أسفل قبة القميص دون تبكيل، ذي قامة أميل إلى الطول و أقرب إلى النحف ببشرة بيضاء و شعر أسود بدأ يقل من الأمام كاشفاً عن جبهة عريضة و ابتسامة محببة، و روزا متوسطة الطول سمراء فاتحة، ممتلئة قليلاً بعيون عسلية و شعر كستنائي، زادها إحساس الأمومة المقبلة و التي لم تظهر للعيان بعد أنوثة و رقة.
أحبت روزا طعام هذه البلاد و بعد أن تناولا عشاءً شرقياً بمقبلاته و لحمه المشوي، طلب خليل أركيلة و ضحك ممازحاً روزا:

-أنت ممنوع عنك الأركيلة حسب تعليمات الطبيب.

-أي بشترك معك، باخد كم سحبة من أركيلتك.

قالتها ضاحكة محاولة تقليد اللهجة المحلية و التي بدأت تتقنها .

أخبر خليل روزا أنه اليوم اتصل به صديقه الإعلامي الخليجي فهد، و أخبره أن الحراك لإسقاط النظام انطلق في عدد من المدن في أقدم بلاد اللّه و أن المحطات الفضائية العربية تنقل صوراً لمظاهرات سلمية و أن قوات الأمن تهاجمها بالرصاص، تندر خليل:

-يعني قاعد خلف سبع بحور و عم يحكيني عن أحوال البلد كما لو أنوا قاعد بيناتنا، بالمدينة الفلانية خرج خمسة آلاف في مظاهرة، و في القرية الفلانية أولاد المدرسة عملوا اضراب، و في المحافظة الفلانية قطعوا الشوارع و شعلوا الدواليب و حرقوا صور الرئيس، أنا طوال اليوم في جولات ميدانية ما شفت شي، البلد هادية و مستقرة، لأ و بكرة عندي زيارة ميدانية بالمنطقة يلي يفترض فيها مظاهرات و احراق و قتل منشوف مدى صدق كلامه مع أني أتوقع وجود مبالغة كبيرة فيما نقله.

أحداث في مدينة الجنوب

في اليوم التاسع عشر من الشهر الثالث للعام الحادي عشر بعد الألفين، ذهب خليل في رحلة عمل إلى جنوب البلاد، عند دخوله المدينة الجنوبية لاحظ خليل شيئاً غير طبيعي، كان هناك جمود غير معهود في الحركة، حتى أن خليل اجتاز شوارع شبه خاوية كان معتاداً أن تكون مزدحمة بالحركة في مثل هذه الساعة من اليوم.

عند وصوله التقاطع المؤدي إلى المركز الإعلامي وجد الطريق مقفلاً، سأل الشرطي الدراج الذي كان قد أقفل الطريق بواسطة دراجته:

- الطريق مسكر؟ خير؟

جاوبه الشرطي بوجوم:

- في مشاكل بقلب البلد.

-أنا من المركز الإعلامي.

-الأوامر ممنوع.

أدار خليل سيارته و سار في الطرقات على غير هدى متذكراً كلام صديقه الخليجي فهد، هل هناك شيء

تخفيه السلطة ، لم يبالي كثيراً، فلن يبقى شيء مخفي للأبد.

أراد خليل أن يجرب سيارته الجديدة كانت تعجبه مع أنها لم تكن فخمة جداً، لقد كانت مصنعة في البلد بترخيص من دولة صديقة، تذكر خليل أن البلد لم تستطع أن تنشئ معمل سيارات واحد خلال عشرات السنوات ، و لم ترضى الشركات الغربية أن تساعد الحكومة بإنشاء معمل سيارات في البلاد أو يجوز أنه لم تعرف الحكومة أن تقنعها لكي تأتي و تجلب تقنياتها الحديثة معها، وها اليوم بالتعاون مع هذه الدولة النامية سابقاً و التي أصبحت متطورة صناعياً اليوم أنشئ عدة معامل لتجميع السيارات في البلد.

سار خليل بسيارته في حارات لا يعرفها، وجد نفسه يسير بمحاذاة سور طويل لدائرة حكومية قد تكون مصلحة الكهرباء أو الهاتف ، و فجأة عند انتهاء السور وجد نفسه أمام ساحة مطلة على مدخل هذه المؤسسة.

هنا شاهد منظراً غير مألوف له، كان عدة عشرات من الصبية يرمون الحجارة على مجموعة من رجال الشرطة

الواقفين أمام باب المؤسسة.
كانت أعمار الصبية تتراوح بين العاشرة أو أقل، و بين السادسة أو السابعة عشر من العمر، قدّر خليل عمر أكبرهم تقريبياً لأن بضعة منهم و هم الأكبر سناً كانوا يلفون وجوههم .
كان الفتية يرمون الحجارة و بعض الزجاجات على رجال الشرطة و يصرخون مقولة واحدة لعلهم اقتبسوها من مشاهدة الأخبار عن الاضطرابات في دول عربية أخرى: (الشعب يريد... اسقاط النظام).
بسبب تفاجئه أحس خليل نفسه أمام تمثيلية سريالية و ليس أمام مشهد واقعي، توقف بسيارته في نقطة بعيدة نوعاً ما لكي يضمن أن لا يصاب بأحد الحجارة و أخذ يراقب محمياً إلى درجة نسبية من خلال زاوية البناء.
كان عدد الحراس من الشرطة حوالي الدزينة، كانوا يلبسون قمصان بيضاء زاهية و كانت أعمارهم حوالي العشرين، في السنوات الأخيرة طرأت تطورات عديدة في البلد أحدها تغيير لباس الشرطة، سابقاً كان الشرطة يعتبرون قوة مؤازرة للجيش و كانوا يلبسون لباساً أقرب

إلى اللباس العسكري، و مع تغيير توجهات الحكومة تم تحويل الشرطة أكثر فأكثر إلى طابع مدني.

انتبه خليل أن الشرطة لم يكونوا مسلحين بشيء، لا بأسلحة نارية و لا حتى بعصي مطاطية، كانوا لدرجة غريبة عزلاً في قمصانهم البيضاء و أعمارهم الفتية.

فهم خليل ان قيادات الشرطة تلقت أمراً بعدم تسليح عناصرها لكي تمنع استخدام السلاح ضد المتظاهرين، حتى لا يتم اعتبار الأمر كأنه قمع للحريات أو اعتداء على الفتية المتظاهرين، و لكي لا تتسرب الصور إلى وسائل الإعلام لاحقاً.

كانت الأمور اقتربت من الرتابة و كان خليل يفكر في أن يذهب، تعب الفتية من ترديد المقولة نفسها و بدا أنهم قريبا سيملون و يذهبون، وفجأة جاءت دراجتان ناريتان يستقلها أربعة رجال ملثمين، كانت بناهم المتينة تدل على أنهم رجال في الثلاثينات، نزل راكبان منهما و أخرجا مسدسين كما و أخرج أحد السائقين مسدساً و بدأ الثلاثة بإطلاق النار أطلق كل واحد من المسلحين حوالي العشرة طلقات ثم استقلوا دراجاتيهم و اختفوا بين الأزقة.

حصل كل شيء في أقل من دقيقة، كان خليل لا يصدق ما رأت عيناه، لولا بقع الدم الأحمر على قمصان ستة من الشرطة المرمين على الأرض، و أنين بعضهم و صراخ رفاقهم الذين أخدوا يركضون دون هدى محاولين اسعاف زملائهم لكان ظن أن ما يحصل هو كابوس و ليس واقعاً.

تتمة الأحداث في مدينة الجنوب

في اليوم التالي جاء خليل مبكراً إلى مكان عمله، تواصل مع زملائه في المنطقة الجنوبية، قاطع المعلومات ما بين ما شاهده و عايشه بالأمس و بين ما كان يقال تارة همساً و تارة في دوائر ضيقة.

كانت الرواية قاتمة، تناقلت معلومات غير مؤكدة أن أحد رؤساء الأفرع الأمنية قد اعتقل عدداً من الفتية في المدينة الجنوبية لكتابتهم شعارات مناهضة على الجدران، عذبهم ، رفض أن يسلمهم لأهاليهم عندما جاؤوا يلتمسون منه إخراجهم نظراً لصغر سنهم و جهالتهم.

قال لهم: انجبوا غيرهم و أنسوا أنهم كانوا أولادكم، و إذا لم تعرفوا كيف تنجبون غيرهم فيمكن لنا أن نساعدكم..

على أثر انتشار هذه الرواية بين الناس ثار أهل المدينة و لحقهم الريف المجاور، أُحرقت المقرات الحكومية و من بينها المركز الإعلامي الذي كان خليل يقصده بالأمس، حرق مقر الحزب و حرقت المحكمة، في أحد القرى جاء

أهل القرية و اشتروا مؤونة عشر أيام من الخبز من الفرن الحكومي دفعة واحدة و بعد الظهر جاء مسلحون ملثمون منهم و احرقوا الفرن.
في المحكمة أُحرق أرشيف السجناء الجنائيين بالكامل، تحصن رجال الأمن و الشرطة في المقرات الحكومية .
وعد خليل نفسه أن يكشف ملابسات الحادثة و أن يبحث عن ذوي هؤلاء الفتية و يعرف حقيقة ما جرى و في حال كون هذا الذي يتداوله الناس حقيقة فيجب ان يحاسب هذا الضابط مهما علت منزلته، كما و يجب أن يحاسب الجناة الذين اعتدوا على الموظفين الحكوميين.
في الأيام و الأشهر اللاحقة بحث خليل كثيراً و تواصل مع كثير من أهل المنطقة، كانت المعلومات غامضة و مشوشة، فلم يتمكن من الوصول إلى أحد من أهالي هؤلاء الفتية أو حتى اسمائهم، كانت كلها معلومات يتناقلها الناس قيلا عن قال، و عندما تبحث عن أصل الخبر، عن النقطة الأولى التي انطلق منها الحدث، تجد نفسك تدور في حلقة مفرغة.
نُقل الضابط إلى موقع آخر، و لم يتمكن خليل من توثيق

أي شيء مؤكد، فقط حالة من الهيجان استمرت و تفاقمت، و زادت الاضطرابات، و دخلت البلاد في نفق مظلم أسود .

تدريجياً صغرت هذه الحادثة أمام الأحداث الجسام اللاحقة و التي حدثت في البلاد، و لم يعد أحد يهتم بحقيقة ما جرى في المنطقة الجنوبية، سوى بمقدار ما يمكن استخدامه لهذه الرواية الغير مؤكدة في تأجيج صدور الناس ضد السلطة الحاكمة.

في السنوات اللاحقة كثيراً ما سمع خليل أنه لو تداركت الحكومة الأمر و حاسبت هذا الضابط لما تطورت الأوضاع بهذا الشكل الدراماتيكي بعدها، كان يعلم و ربما حتى من كان يقول هذا الكلام كان يعلم في قرارة نفسه أنه كمن يتمسك بقشة في زمن الطوفان.

علم خليل لاحقاً أن أحدهم قرر أن يسمي ما يحدث ثورة و أن يكون اليوم الثامن عشر في الشهر الثالث عيداً لانطلاقها.

سامر

كان سامر الحامد رابع الأصدقاء مختلفاً في طريقة تفكيره عن أصدقائه، فقد كان في نفسيته شرخٌ غير ظاهر و لكن الأيام ستتكفل بإخراجه.

لقد كان من المنطقة الشمالية الشرقية، جاء والده من أقصى الشمال و تزوج والدته و استقر في مدينة على النهر العظيم الذي يقطع البلاد من شمالها إلى شرقها.

كان هذا النهر منذ آلاف السنين مصدراً للخير كما كان مصدراً للخراب في فترات ازدياد مياهه بشكل كبير في أيام الربيع، بعد الاستقلال أنشئت الحكومة عليه سداً عملاقاً حاجزاً ورائه بحيرة كبيرة و منظماً جريان النهر، تحولت المنطقة بعدها إلى الاستقرار و نشطت الزراعة و العمران.

كان والد سامر أحد المهندسين الذين عملوا في انشاء السد و بعد اتمامه استقر في المدينة الكبيرة التي انشئت بجانب السد.

درس والد سامر الهندسة في إحدى الدول الاشتراكية ، لم

يكن عربياً بالمفهوم الأثني بل كان من القومية الثانية في البلد و التي كان الكثير من ممثليها يشكون التهميش و الطمس الثقافي لهويتهم.

والد سامر استهوته في شبابه أفكار الحزب الشيوعي والتي تدعوا إلى المساواة بين جميع العمال و الكادحين و توحدهم في وجه المستغلين.

كانت أيامه تلك غير أيامنا هذه، كانت الحماسة و الأفكار الثورية اليسارية قادرة على تحريك قلوب الشباب، سافر والد سامر بدعم من الحزب الشيوعي في البلاد للدراسة خارجاً و عاد بعدها للاستقرار و العمل في بلده.

تزوج والد سامر في أوروبا الشرقية أثناء دراسته من زميلة له في الجامعة و أنجب منها ابنة، عندما أنهى دراسته و جاء وقت رجوعه إلى بلاده اصطحب زوجته و ابنته معه.

لم تتأقلم زوجته مع المجتمع المحلي و الذي كان انصافاً للحق ما زال متخلفاً، بعد سنتين اصطحبت ابنتها و رجعت إلى بلادها.

تزوج بعدها والد سامر فتاة عربية كانت تعمل مدرسة في

المدينة التي استقر بها و أنجب منها عدداً من الأولاد كان سامر أوسطهم.

مع الأيام خبت الأفكار الاشتراكية في نفس والد سامر و طغت محلها الهموم الحياتية، و مع تقدمه في العمر بدأت الأفكار الدينية تدخل تدريجياً إلى نفسه، فالتزم بالفروض الدينية و حج إلى مكة.

تميز سامر عن أخوته بطبعه، كان جميع أخوة و أخوات سامر يميلون إلى الطباع الهادئة و المتوازنة كعادة أغلب سكان تلك النواحي الطيبين، بينما في نفس سامر كان هناك تعارض داخلي كان يظهر بسلوكه الرافض في كثير من الأحيان لمجرد الرفض، كما أنه أظهر ميلاً للتعلق الشديد بآرائه و عدم قبول الحوار بها إلا في إطار إذعان الآخر بها .

أكمل سامر تعليمه الجامعي في العاصمة في كلية الأدب الإنكليزي، و قد يكون مجال دراسته سبباً لتعلقه بالأفكار الليبرالية و التي ربط بها تطور و تقدم المجتمع الغربي.

كان معجباً بكل ما هو غربي لدرجة التطرف، لم يكن

يسمع إلا الموسيقا الإنكليزية ولم يكن يكتب إلا باللغة الإنكليزية و لو تمكن لما تكلم إلا اللغة الإنكليزية حتى بدا كما لو أنه يكره اللغة العربية، كما كان يقلد النمط الغربي في لباسه و طريقة حياته.

تعلقه الشديد باللغة الإنكليزية اتاح له التفوق في الكلية فاستمر بالدراسة في مرحلة الدراسات العليا و حصل على شهادة الماجستير في الأدب الإنكليزي.

كانت طموحاته تدور حول الهجرة و الاستقرار خارجاً و لكن الظروف لم تساعده، فبعد أحداث الحادي عشر من أيلول أصبحت الأمور أصعب مما كان سابقاً و أصبحت تكلف أكثر من ذي قبل.

كما كان هناك صراع داخلي في نفسه، فرغم إعجابه بالغرب فقد كان يعلم في قرارة نفسه أن الغربيين سينظرون له نظرة دونية كمهاجر في بلادهم و قد لا يتاح له العمل اللائق و سيضطر للعمل في المطاعم و الخدمات كما يفعل أغلب المهاجرين، بينما كان في بلاده يدرّس في الجامعة و في معاهد تعليم اللغات الخاصة و كان يحصل على دخل جيد يؤمن له حياة كريمة.

كان أصدقاءه يعلمون قناعاته وطباعه و لكن كان هناك جانب مشرق في نفسية سامر، فقد كان صادقا كما و كان صديقاً وفياً ملبيا لأصدقائه إذا قصدوه ، وعندما يكون مزاجه رائقاً كانت جلسته جميلة لا تفوت.

العشاء الأخير

في بدايات صيف العام الحادي عشر بعد الألفين قرر الأصدقاء الاجتماع و قضاء يوم عطلة مع بعضهم، استذكروا أيامهم الخوالي و قرروا أن يستأجروا مزرعة بها مسبح ليمضوا يومهم بها ، جالبين معهم حاجياتهم .

كانت هذه هي آخر مرة يجتمعون بها سوية ، فقد بدأت الأحداث الأمنية تلقي بظلالها ، و أصبحت المناطق الريفية أخطر فأخطر.

و قد يظن البعض أن سلوكهم كان به نوع من التهور ، و لكنهم كانوا ما زالوا يظنون - كما أغلبية أهل البلد - أن هذه الاضطرابات الأمنية هي غيمة عابرة ، ما تلبث أن تزول ، و لن تدوم أكثر من أشهر.

بدل من أن تدوم الغيوم السوداء أشهراً ستستمر أعواماً و كثيراً ما سيتذكر الأصدقاء جلستهم هذه و التي سيصبح تكرارها من المحال عليهم.

جاء بالإضافة إلى الأصدقاء الأربعة صديقان آخران من أصدقاء الدراسة و هما الشيخ عابد و حنا ، الشيخ عابد هو

لقب كان الأصدقاء يطلقونه على عابد نظراً لدراسته في كلية الشريعة، رغم هذا الاسم لم يكن شيء قد يوحي في عابد أنه رجل دين، طويل القامة معتدل البنية خفيف الدقن المحددة دائماً، كما لو أن الأفكار الدينية المعتدلة و النظرة الإيمانية الحقة في الحياة قد ارتسمتا بالرضى على وجهه البشوش، كان صديقاً ودوداً و كان أعز أصدقائه حنا الذي يختلف بالدين عنه.

حالة عابد المادية الجيدة و عمله التجاري الناجح اتاحا له الوقت و الامكانات لينخرط في عدد من الجمعيات الخيرية و منتديات التقريب بين المذاهب الدينية في البلاد و حيث أنه قد تزوج باكراً فقد أطلق على ولديه و بنتيه أسماء من مختلف المذاهب الدينية كما لو أنه سعى لتوحيد المذاهب الدينية في أسرته الصغيرة.

جلس الأصدقاء حول مائدة الفطور التي كانت عبارة عن طبق من الفول مع الخضار و المخللات و البصل و الخبز المشروح الطازج و الشاي، هذا الفطور التقليدي الذي تآلف عليه أهل البلد في صبيحة يوم العطلة، عندما اشتد الحر نزل الأصدقاء إلى حوض السباحة يسبحون و يلهون في الماء.

كانوا في الثلاثينات من العمر و كان هذا اللقاء كفرصة لهم بالرجوع بالسنين عشرة سنين إلى الخلف.

اختلفوا في بنياتهم رغم أن التقدم بالعمر قد بدأ يظهر عليهم فما زالوا شباباً، خليل الميال إلى النحف و الذي كان سباحاً ماهراً مارس هوايته في السباحة في طفولته عندما استقر مع أهله لفترة في مدينة ساحلية بحكم عمل والده، ثم طورها رياضياً قبل أن تأخذه مشاغل الحياة عن محاولة ان يصبح بطلاً رياضياً في مجال السباحة.

كمال رغم بعض الوزن الزائد بطوله المربوع كان واضح البنية العضلية نتيجة ممارسته لرياضة بناء الأجسام التي و رغم فقدانه زخم الاهتمام بها ما زال مواظباً على الذهاب للنادي الرياضي لممارستها ثلاث مرات أسبوعياً، عبد الرحمن بجسمه الأسمر الرشيق و القوي الميال للنحف كان يخفي آثار لعبة المصارعة التي مارسها مطولاً حتى أصبح مدرباً بها، و أما باقي الرفاق فقد بدت بناهم عادية لا تشير إلى أي نشاط رياضي ملحوظ بل و تشير إلى ترهل ناتج عن الأعمال المكتبية و قلة الحركة و خاصة لسامر و حنا.

بعد أن لعبوا بالكرة و ملوا من القفز إلى الماء من على سطح البناء المحاذي للمسبح ، جلس الرفاق يتضاحكون و هم يلفون أجسادهم بالمناشف.

أعدوا الشاي و الأراكيل و أخذهم الحديث في الموضوعات الساخنة التي كانت تدور على ألسنة الناس في تلك الفترة.

نشأ شرخٌ غير ظاهر في البدأ و لكنه آخذ يتوسع في أحاديثهم، كانت بعض الأحاديث مما عايشوه و بعضها بل و أكثرها مما سمعوه او ما شاهدوه على القنوات الفضائية أو مما ينشر على الشبكة العنكبوتية، كما و سايرت تأويلاتهم للأحداث الميول الداخلية لكل منهم.

كان سامر شديداً في انتقاداته:

ـ إن هذا النظام نظام قمعي بل و فاشي، يكفيه أن حكمنا ظلماً أكثر من أربعين سنة لم يحقق فيها شيء من وعوده فلا حقق الحرية للإنسان بل طبق الحكم البوليسي و الدولة الأمنية، و لا حرر الأراضي المحتلة رغم استنزاف الاقتصاد بحجة نفقات الاستعداد للمعركة، علاقاتنا سيئة مع دول العالم المتقدم بل و أكثر من ذلك أصبحنا منبوذين من قبل دول الجوار و دول العالم العربي،

تقدمت الدول كلها و ما زال شعبنا يرزح تحت نير التخلف بسبب هذا النظام الفاشل الذي يجب أن يرحل لنعيد بناء دولتنا و مجتمعنا على أسس ديمقراطية تتيح المساواة و العدالة و التنمية للجميع.

جاوبه خليل و هو يلف نفسه بالمنشفة:

ـ لا أحد يختلف معك أننا بحاجة إلى إصلاح واقع دولتنا، و لكن ألا ترى أن هذه الفوضى العبثية تدمر أكثر مما تصلح؟ كما أن الإعلام و التدخل الخارجي يعمل على زيادة الهوة بين الأطراف المتنافسة بدلاً من أن يجمعها لتضع خريطة للخروج من الأزمة؟

قهقه سامر ساخراً:

ـ هل تؤمن أن هذا النظام راغبٌ أو قادرٌ على الإصلاح؟ إنه يدعوا إلى الحوار لإضاعة الوقت لا أكثر و في الخفاء يمارس سياسة البطش الأمني بالمتظاهرين و المعارضين له..

ـ قد يكون هذا صحيحاً و لكن على الجهة المقابلة هناك عنف من المعارضين، و سمعنا بهجمات عديدة على المراكز الأمنية و العسكرية و قتل ضباط و جنود، و أنا شخصياً خلال عملي الإعلامي وثقت حالات من الاعتداءات على

رجال الشرطة و الجيش.
- طبعا عندما تأمر الشرطة و الجيش بقمع المظاهرات السلمية فسيتجه الناس إلى العنف، ثم أن كثيراً من أفراد الجيش و الشرطة رفضوا تنفيذ الأوامر بقتل المدنيين العزل و انشقوا و انضموا إلى المعارضين.
- أتثق بالتقارير الإخبارية التي تبثها قنوات إعلامية خارجية يومياً عن انشقاق كذا و كذا ضابط و جندي و يصورون مشاهد لهم و هم يعلنون ذلك؟ أتعلم إن أكثر هذه المشاهد تم تحت التهديد أو بالإغراء المادي الكبير لضعاف النفوس.
- ليس بالضرورة، أنت تعلم الحالة الطائفية الموجودة في الدولة و خاصة في المؤسسة العسكرية و الأمنية، هناك حالة من التمييز على أساس طائفي و هذا يدفع بالجنود و الضباط إلى الانشقاق.
أردف عبد الرحمن قائلاً:
- حالات الطائفية و الفساد ليست مقتصرة على الجيش و الأمن بل تشمل كل أجهزة الدولة، و قد زادت كثيراً و أصبحت علنية في السنوات الأخيرة و لا أحد يحاسب كبار

اللصوص و الذين يتسترون حول طوائف معينة، فخذ مثلاً لدينا في مرآب الوزارة حالات لا تحصى للفساد ويتم حماية من يقوم بذلك لانتمائه لطائفة معينة.

تدخل كمال قائلا:

ـ صديقي الفساد ليس نتيجة للطائفية بل الفساد هو الذي يؤدي إلى خلق حالات طائفية مقصودة ليتستر خلفها، فمحاباة البعض لأناس معينين ناتجة عن ترهل الأجهزة و عدم المحاسبة و المسائلة، و عندما يتاح للشخص فعل ما يريد و تجاوز الأنظمة و القوانين دون رقيب أو حسيب سيتمكن من محاباة أقاربه، أصدقائه، أبناء طائفته، من يشاء في النهاية ،أو من يدفع له أكثر بغض النظر عن طائفته.

أكد خليل كلامه:

ـ المشكلة ليست في بنية الدولة بل في سلوك بعض الناس، فأنتم تعلمون أن النظام السياسي في البلد حارب الطائفية الظاهرة و أمن المساواة بين جميع مكونات الدولة من خلال تمثيلها في المؤسسة العسكرية و الأمنية و الهيئات المدنية للدولة، حتى أن هناك توازنات متعارف عليها لنسبية

تمثيل مكونات المجتمع في كافة بنى الدولة، تراعى بشكل غير ملحوظ و لكن دقيق.

فقال سامر:

- هنا أختلف معك، إن النظام السياسي الحالي يضطهد مكونات أساسية و عريقة في المجتمع السوري، أنتم تعرفون أن أصولي ليست عربية و أنا أفتخر بقوميتي، فأجدادي سكنوا هذه الأرض قبل العرب بآلاف السنين، و هذا النظام يحرمنا من أبسط حقوقنا في أن نتكلم و نعلم لغتنا القومية، بل و يجبرنا على تغيير أسمائنا القومية إلى أسماء عربية، يصادر أرضنا و يسكن عرباً بها، حتى أن أكثرنا محرومون من الجنسية و نعيش في بلدنا دون هوية مدنية.

أجابه خليل:

- الجميع يعرف أصل القضية فلا داعي لإلصاقها بالنظام الحالي، تعود المشكلة بجذورها إلى التقسيمات الاستعمارية لبلاد الشرق و التي قسمت شعباً عريقاً بين أربعة دول، و للعلم فأغلبية هذا الشعب في بلدنا جاء من جبال دولة مجاورة نتيجة اضطهاده هناك و استقر في سهول

بلدنا ، و أنت تعلم تاريخياً أن شعبك يسكن الجبال و ليس السهول، و بالنسبة للجنسية فأن الكثير من هذا الشعب رفضوها في البداية لكي لا يرسلوا أبنائهم للخدمة العسكرية الإجبارية، و عندما أدركوا خطأهم كان الوقت قد فات، و أما استخدام اللغة والأسماء فهذه حالة تحل بالحوار و ليس بالثورات و المواجهة.

لم يوافق سامر كعادته:

ـ أنا ضد هذا النظام و أغلبية الشعب ضده، فنحن حين نطالب بحقوقنا نطلبها لجميع المواطنين، و هذا النظام إن كان عادلاً في شيء فهو عادل في ظلمه لجميع مكونات المجتمع، مع أن مكوننا تعرض لظلم أشد كما أسلفت، و أعتقد المجتمع الدولي لن يسمح لهذا النظام بالتمادي أكثر و ستتدخل أمم العالم الحر لإزالة هذا النظام إن لم يرحل بنفسه.

استغرب خليل:

ـ هل توافق أن يغزو الغرب بلدنا ليغير النظام كما فعل في العديد من الدول العربية، و أنت تعلم مقدار الضرر الذي يمكن أن يحدثه هكذا عدوان على البنى التحتية، و كم

سيخطف من أرواح المواطنين، سواء العسكريين منهم أو المدنيين؟
ـ إذا لم يكن هنالك حل آخر فاليكن، أو فليرحل رأس النظام مع أزلامه حقنا للدماء، إذا كان يريد تجنيب البلاد ويلات الحرب.
تدخل كمال:
- أنا ضد أي اعتداء خارجي على بلدنا، و في حال حصول أي عدوان خارجي سأكون جندياً في جيش البلاد، يدافع عن أرضنا ضد المعتدي الخارجي، لا يوجد سبب في الدنيا يجعلني أسمح لأي دولة أن تحتل بلادي.
ساد هرجٌ بين الأصدقاء فأكد عابد موقف كمال قائلاً أن الدين يحض على الدفاع عن الأرض و منع الاعتداء الخارجي عليها، فعارضه عبد الرحمن بقوله أنه كذلك الدين يقول إذا رأيتم الظلم فغيروه و الساكت عن الحق شيطان أخرس، فرد عليه عابد أن الخروج عن الحاكم منافي للشرع بل يجب نصح الحاكم، فأجابه عبد الرحمن أن الحاكم هو من خرج بتصرفاته عن حدود الشرع و وجب القصاص منه و عدم طاعته، الوحيد الذي لم يشترك

في النقاش كان حنا الذي بقي على حياده الغامض و لم يصرح عن موقف.

استمر الجدال طويلاً بين الأصدقاء لم يكملوا يومهم في المزرعة إلى وقت متأخر كما عادتهم، بعد أن تناولوا غداء متأخراً أو بالأحرى عشاءً مبكراً من بعض اللحوم و الخضار المشوية، انفضوا باكراً، بعضهم تحجج بالمشاغل و بعضهم مداراة للأوضاع الأمنية المضطربة، كان هنالك شعور في داخل كل واحدٍ منهم، أن هناك شرخاً كبيراً قد حصل ما بينهم و قسمهم قسمة قد لا تقبل الجمع أبداً..

النقيب ابراهيم

كان كمال قد بدأ يتغلب على علة القلب التي أصابت روحه و جسده، و لكنه لن يشفى ابداً.

في الواقع لقد تعايش مع حالة الحب الدفين في قلبه و الذي أمسى كالجمر تحت الرماد، و إذ بالأيام تعصف بقلبه و تحرك مواجعه و تشعل حريق قلبه مجدداً.

لقد اتصلت به فاتن، و بعد فترة من انقطاع الأحاديث بينهما رجعا يتحادثان يومياً، كانا كلاهما وحيداً و كانا بحاجة إلى أن يتحادثا رغم أنهما حاولا أن لا يتطرقا مؤقتا إلى موضوع علاقتهما العاطفية.

طلبت فاتن من كمال أن يبقيا صديقين و يتركا موضوع الحب و الارتباط للأيام لتحكم به حيث كانت فاتن صريحة مع كمال أنها لن ترتبط به إلا إذا وافق أهلها.

كان كمال يفكر بمستقبل أيامه بقلق فهل سيبقى ينتظر السنين تلو السنين حتى يتغير رأي والد فاتن و هو المعروف بتصلب رأيه؟ ثم ألن يكون هذا ظلما لفاتن أن تنتظره السنين الطويلة و هي الآن وردة ندية و قد تحمل لها

الأيام الذبول؟
فاتن كانت تفكر كذلك في مستقبلها فلا ترى أفقاً يرضيها.
في هذه الاثناء طرأ حادث مفاجئ على حياة أسرة العقيد أبو أحمد، جاء الضابط الشاب إبراهيم لزيارة عائلة أبو احمد.
كان إبراهيم نقيباً في الشرطة تم نقله مؤخراً للخدمة في أحد الأحياء الشعبية للعاصمة، فاستغل فرصة قدومه إلى العاصمة لكي يزور بيت قريبه أبو أحمد.
استقبل أبو أحمد النقيب إبراهيم بحفاوة بالغة، فوالد إبراهيم كان لواء متقاعد و له أفضال كبيرة على أبو أحمد، حتى أنه هو من كان قد زكى أبو أحمد فيما مضى ليتم قبوله في الكلية العسكرية.
طابت الزيارة للنقيب ابراهيم فتتالت زيارته إلى هذا المنزل المضياف و الذي كانت تزينه ثلاثة وردات جميلات في سن الزواج، و لكن الوردة الوسطى فاتن أعجبته أكثر من أختيها.
كان إبراهيم في منتصف الثلاثينات و كان يفكر بأن

الوقت قد أصبح يلح عليه ليكون أسرة، فوجد في فاتن الفتاة المناسبة، لا يمكن أن نقول أنه قد جُن بها حيث لم يكن إبراهيم من هذا النوع العاطفي المبالغ به، و لكنه قد أحبها بأحساس مناسبتها له و لمكانته و لأسمه ، أحبها كربة لمنزله و أم لأولاده و رفيقة لدربه.

في إحدى زياراته لمنزل عائلة أبو أحمد طرح إبراهيم الموضوع أمام أبو أحمد قائلا:

-عمي أبو أحمد بيشرفني أطلب أيد كريمتكن فاتن للزواج على سنة الله و رسوله .

سر أبو أحمد من هذه الخطوة التي كان يتمناها بداخله، كان لارتياحه عدة أسباب فنسب عائلة النقيب إبراهيم يشرف أي شخص فهو ابن أحد اكبر العائلات في منطقته و عائلته تجمع الغنى و النفوذ، فعشرات الضباط من هذه العائلة يشغلون المناصب الرفيعة، و من جهة أخرى فهو من نفس المذهب و لا مشكلة من هذه الناحية و الأهم أنه اختار فاتن فلعله ينسيها كمال.

و للحقيقة كان إبراهيم منافساً قوياً لكمال، طويل البنية ممشوقاً بقسمات أقرب أن تكون وسيمة، ناجح في عمله

من عائلة غنية و نافذة، فبدأت فاتن تراجع نفسها بعد عدد من اللقاءات مع إبراهيم في المنزل و خاصة بعد أن دعاها للخروج معه إلى مطعم بعد أن استأذن والدها.

ترددت فاتن في قبول عزيمته فهي لم تكن تعرف هل هي حرة في هكذا خطوة أم لا ، فهمت أن قبولها هذه العزيمة قد يعني أنها ستتجاوز خطاً أحمر في داخلها، ما زال يجمعها برباط غير مرئي بشوقي.

في مساء أحد الأيام دار حديث مطول بين فاتن و أمها، كانتا وحدهما في الغرفة و كانت الأختان الأخرتان في الخارج، و تارة كان يصلهما صوت أم أحمد و تارة يسمعان بكاءاً مكبوتاً لفاتن، بعد ساعتين خرجت فاتن من الغرفة بجفون حمراء و لكنها على ما يبدو قد أخدت درساً في واقعية الحياة من أمها، تلك الواقعية التي تلتصق أكثر بالمرأة من الرجل و التي لولاها ربما لما استمر الجنس البشري.

تتالت لقاءات فاتن بإبراهيم و في إحداها قدم لها خاتم الخطوبة و وضعه في أصبعها، و بعد يومين جاء والداه و مجموعة من الأقارب و تمت مراسم الخطوبة بشكل رسمي

في منزل العائلة باحتفال مصغر .

قبلها بيوم اتصلت فاتن بكمال و اعلمته بقرارها بالارتباط بأحد أقربائها ، و طلبت منه أن يسامحها و أن يكون سعيداً في حياته و أن ينساها ، ثم اجهشت بالبكاء و أقفلت الهاتف.

الفصل الثاني

طوفان الدم

كمقدمة للفصل الثاني

في قديم الزمان اصطاد صيادٌ نمراً ضخماً ، حيث نصب له فخاً و حبسه في قفص معدني متين.

في أول يوم كان النمر يزأر و يضرب قضبان القفص بمخالبه حتى يتطاير الشرر منها و كان الصياد يراقبه دون أي كلام.

بعد يومين على هذه الحالة و بعد أن جاع النمر تكلم قائلاً للصياد : حسناً اعترف لك أنك تمكنت من اصطيادي و الأن أنا في أسرك فأجلب لي الطعام.

فقال له الصياد: و ماذا تأكل؟ قال النمر: اللحم طبعاً.

فقال الصياد : أن اللحم غالي و لكني يمكن أن اتدبر لك ثمنه إذا أنت صرت تمؤ كالهر.

غضب النمر و بدأ يضرب القضبان و يزأر مجدداً و لكن دون فائدة و أخيراً قال للصياد: حسنا سأموء مقابل أن تجلب لي الطعام..

و هكذا حصل، أصبح النمر يمؤ و الصياد يطعمه لحماً.

و في أحد الأيام استمر النمر بالمواء و لكن اللحم لم يأتي و هكذا لعدة أيام.

و عندما جاء الصياد سأل النمر متعجباً: أين اللحم فها أنا أموء كما اتفقنا؟

فقال له الصياد : أن اللحم غالي و لم يعد لي طاقة بشرائه و لكن يمكن أن أجلب لك العشب.

جن جنون النمر : أنا نمر ولن أكل عشباً.

لكن بعد عدة أيام و بعد أن اشتد الجوع بالنمر قال للصياد: أجلب لي عشباً.

بعد فترة تعود النمر على أكل العشب.

في قرية مسالمة امتاز اهلها بالتسامح الديني و عدم التشدد في الفروض الدينية، جاءت الثورة..

تحولت الثورة من أفعى ليبرالية إلى ثعبان ديني..

جاء دعاة الدولة الدينية إلى هذه القرية و سألوهم: من أنتم؟

أجابهم وجهاء القرية: نحن مؤمنون مثلكم.

قالوا: و لما لا تتشددون في أداء الفروض الدينية؟ و لما لا تبنون معابدكم كما نبنيها نحن؟ و لما نسائكم يظهر منهن شيء؟ أنتم لستم مؤمنين حقيقين فقرروا إما تدفعون الجزية و إما تطبقون الشرع الديني.

مساءً اجتمع وجهاء القرية و تباحثوا فيما بينهم و قالوا: إذا قلنا لهم سندفع الجزية سيرهقوننا بمطالبهم و سيزيدون ضغطهم علينا، حتى مع الأيام نترك قريتنا و نهيم على وجوهنا، فالنكن أذكى منهم ونختار الحل الثاني و ننحني للعاصفة حتى تمر.

في اليوم التالي قالوا للمتشددين: قبلنا أن نطبق الشرع كما تريدون.

غيروا شكل معابدهم كما طلب منهم المتشددون، ثم التزموا بالصلوات جميعها و أقاموا الفروض الدينية، أرخوا ذقونهم و لبسوا الملابس الفضفاضة.

في يوم الصلاة جاء المتشددون بأعداد كثر لكي يصلوا مع أهل القرية، فوجدوا أنه لا مدرسة دينية في القرية، فقالوا: إن هذا غير مقبول، أرسل

المتشددون شيخاً منهم ليعلم أولاد القرية أصول الدين، ثم قالوا للنساء في القرية أن يختفين كلياً في ملابسهن و إن لم يخرجن من بيوتهن فهذا أفضل..

بعد فترة قالوا لأهل القرية: لن تكونوا مؤمنين حقاً حتى يشارك أبنائكم معنا في قتال الكفار..

و عندما أخذوا الفتية إلى حروبهم العبثية، قالوا لهم: استعجلوا فالجنة بإنتظاركم، لما تتأخرون في الطريق إليها؟ ألبسوا هذه الأحزمة الناسفة و فجروا أنفسكم بالكفار.

في قرية مسالمة أخرى رفض أهلها الجزية و شرع المتشددين كليهما، اشتروا سلاحا و تدربوا على استخدامه و عندما جائهم دعاة الدولة الدينية قتلوهم و تحصنوا في قريتهم قائلين: إما نحيى بكرامة و حرية و إما فالموت سيان.

حصاد الموت للزهور

بدأت الأزمة بشكل متدرج ثم كبرت ككرة الثلج آخذة معها كل شيء، كثر من الناس جرفتهم في طريقها لأنهم لم يحتاطوا لهذه الأحداث الدامية و لكن هل كان أحد في بلاد مسالمة عاشت بسلام و أمن أربعين سنة يتوقع أن يسيل الدم في شوارع المدن و القرى ليصبح طوفاناً؟

كان العقيد أبو أحمد شخصاً حذراً، كما أن طبيعة عمله المهني قد علمته أن يكون شديد الاحتياط و عندما قرر الذهاب إلى قريته مصطحباً بناته الثلاثة معه ليقضوا عدداً من الأيام في القرية و ليغتنموا ما بقي من هذا الربيع الجميل الذي أخذ ينتهي تقريبا مفسحاً المجال لحر الصيف.

أجرى اتصالاته عن حالة الطريق فكانت الإجابة مطمئنة ان لا شيء يذكر و هناك عدد من الحواجز العسكرية المنتشرة على طول الأوتوستراد و التي تؤمن الطريق من العاصمة إلى الشمال و إلى الساحل.

لم يشأ أبو أحمد أن يأخذ عددا من الحراس معه فهكذا

حراسة قد تعرضه لمخاطر إطلاق النار من على جنبات الطريق في حال عرف المسلحون أنها سيارة ضابط فاستقل سيارته المدنية و خبئ مسدسه و اتكل على اللّه و أنطلق في طريقه مع بناته الثلاثة.

بعد مروره على عدد من الحواجز العسكرية النظامية بدأ أبو أحمد يطمئن و بدأت المخاوف تزول تدريجياً، و لكن قبل أن يمضي الثلث الأول من الطريق استوقفه حاجز مسلح آخر.

كان هناك عددٌ من المسلحين على هذا الحاجز يرتدون لباساً عسكرياً شبيها باللباس النظامي إلا أن شيئاً غريباً كان في هيأتهم و تصرفاتهم، للأسف لم يلحظ أبو أحمد ذلك إلا بعد أن أوقف سيارته.

كان يقف في المقدمة خمسة رجال مسلحين و لكنه لاحظ ما حول الطريق كذلك عشرات المسلحين بعضهم باللباس العسكري و بعضهم باللباس المدني كانوا يحملون أسلحة متنوعة من بواريد حربية إلى بواريد صيد إلى سواطير و حتى كان أحدهم يحمل قاذف أر بي جيه و كان معهم عدد من الدراجات النارية و سيارات البيك آب

خبؤها خلف الجسر و ما بين الأشجار.

فهم أبو أحمد أنه قد وقع في الفخ و بدأ يفكر كيف يخرج من هذا المأزق، عندما طلب منه أحد المسلحين أوراقه الثبوتية تذكر أبو أحمد أن سائقه المدني كان يحتفظ بشهادة السواقة الخاصة به في تابلو السيارة، سائق أبو أحمد كان في عمر مقارب للعقيد و به بعض الشبه له فأخرج أبو أحمد شهادة السواقة الخاصة بالسائق و أعطاها للمسلح.

نظر من كان يفترضَ أنه زعيم هذه العصابة في الوثيقة و قلبها مباشرة ليعرف الجهة الصادرة عنها، كان سائق أبو أحمد من الجنوب، نظر الرجل إلى بنات أبو أحمد و اللواتي كن ثلاثتهن على الكرسي الخلفي، و هي عادة قديمة لهن لكي يتبادلن أحاديثهن و أشيائهن الصغيرة المضحكة أحيانا و العاطفية أحيانا همسا دون أن يسمعهما والدهما.

نظر المسلح إلى مصدر هويات الفتيات و سأل مجدداً:

-ما صلتك بهؤلاء الفتيات؟

أجابه أبو أحمد:

- أنا صديق والدهم و هو مقعد و أقوم بإيصالهم إلى منزل جدهم.

كانت وجوه العصابة قد بدت و كأنهم يضمرون شيئاً و علت همهمة و ضحكات صفراء وجوه بعضهم و هم يتناقلون هويات الفتيات.

ثم تكلم زعيمهم:

- سأعفو عنك يا عبد الله لأنك من مهد الثورة و لن أقدمك للمحكمة الشرعية بتهمة أنك تدعم النظام و التي سيعدمونك حكماً بسببها ، أغرب عن وجهي، أما السيارة فسنصادرها لدعم الثورة أما هؤلاء الفتيات فهم من منطقة الكفار الداعمين للنظام و كما قال لنا شيخنا فهم من الآن سبايا.

ثم دار رأسه باتجاه مجموعته و صاح:

- تكبير .. تكبير

فأجابته عشرات الحناجر المتعطشة إلى الدم و الاغتصاب.

نهض أبو أحمد من كرسي السائق و مشى بضعة خطوات كان يتلقى خلالها لكمات و إهانات ثم اخفض رأسه و مشى على الطريق، انحنى أبو أحمد إلى الأرض كما لو

أنه يريد أن يصلح شيئاً في حذائه ثم و بحركة مفاجئة استل أبو أحمد مسدسه و الذي كان يجيد إخفائه حول قدمه و استدار باتجاه المجموعة.

كان آخر ما شاهده أبو أحمد وجوه فتياته الثلاثة المرعوبة و الباكية و عشرات المجرمين يمسكون بهن، أول ثلاثة رصاصات وجهها بطل الرماية بالمسدس أبو أحمد إلى رؤوس فتياته، ثم تمكن من إطلاق خمسة أو ستة رصاصات إلى رؤوس المجرمين قبل أن يسقط أرضا مصاباً بعدة رصاصات.

استمرت الرصاصات بالهطول عليه حتى بعد أن فارقت روحه جسده، حوالي الخمسين أو الستين رصاصة استقرت في جسده.

رمى المجرمون جثث الفتيات و والدهم في الوادي من فوق الجسر و لم تعثر عليهم القوات الحكومية إلا بعد ثلاثة أيام.

المخفر في حي العشوائيات

النقيب إبراهيم لن يعرف أبدا ماذا حصل لخطيبته فاتن.
كان إبراهيم قد عين رئيساً لمخفر شرطة كبير يقع في حي شعبي في جنوب العاصمة، في الأيام السابقة كان التعين في هذا المنصب يعني أن تفتح أبواب الغنى أمام رئيس المخفر.
كانت تغطية مخالفات البناء وحدها تكفي ليصبح رئيس المخفر غنياً، عدا عن تغطية كافة أنواع التجارة الغير مشروعة المنتشرة في الحي، و طالما كانت الأوضاع تحت السيطرة و الهدايا القيمة تصل للقيادات العليا فلن يسئل أحد مدير المخفر من أين لك هذا و إذا كان رئيس المخفر ذا نفوذ و علاقات بالسلطات العليا فيمكن له أن يستفيد أكثر و أكثر.
لكن الوقت الذي صادف انتقال النقيب إبراهيم إلى هذا المخفر لم يكن كالأيام السابقة، كان اسم الحي الحجارة السوداء، لا أحد يعرف من الذي أطلق هذه التسمية على الحي، فالحي بني بشكل عشوائي

باستخدام مختلف أنواع مواد البناء المتوفرة و لكن أغلبها كان طوباً من الأسمنت الرمادي البشع و لم يستخدم الحجر الأسود في البناء بتاتاً.

عندما انتقل إبراهيم إلى المخفر كان هنالك في الجو إحساس ثقيل بخطر داهم كما لو أنه غيمة سوداء غطت كل الأفق مرة واحدة.

حلم النقيب إبراهيم في تلك الليلة بأنه يغرق في ماء أسود و فوقه سماء سوداء، استيقظ مكفهرا و هو يسبح في عرقه، تعوذ بالله من هذا الكابوس، اغتسل و ارتدى لباسه الرسمي و هم بالخروج إلى الشرفة، لكنه تذكر أنه في يوم أمس سقطت عدة رصاصات من الأبنية المجاورة على الشرفة و على عدد من نوافذ المخفر فعدل عن الفكرة.

نزل إلى مكتبه، كان البهو به عدد من العناصر المسلحين و كان المساعد يوزع ذخيرة عليهم ليستبدل نوبة الحرس الليلي.

قبل أن يجلس إلى مكتبه جال على السور المحيط بالمخفر كان عدد من العناصر متوزعين على دائر السور مجهزين

ببنادقهم الروسية و قد فتحوا عدد من الطلاقيات في جدران المخفر عندها اطمئن إبراهيم نسبياً إلى جاهزية عناصره .

أمر أن يحضروا له قهوة الصباح و أثناء شربه للقهوة اتصل بالقيادة مبلغاً مجددا طلبه المساعدة حيث منذ يومين وهو محاصر في المخفر مع ثلاثين عنصر.

كان ملاك المخفر أكثر من ستين شرطي و مساعد إلا أن وضع الحصار الذي يعانيه المخفر منع العناصر الذين كانوا في إجازاتهم من الالتحاق بالمخفر، و من جهة ثانية كان يبدو أن من بين العناصر و المساعدين البعض قد انشقوا عن الخدمة.

كان ما يقلق إبراهيم هو أن يسرب المنشقون المعلومات عن وضع المخفر فالذخيرة قليلة، صندوق ذخيرة واحد و عشرة بواريد روسية و باقي العناصر مسلحون بمسدساتهم فقط و أكثرهم لديه ما لا يتجاوز مخزنين إلى ثلاثة.

كما كان يخاف أن يتواصل المنشقون مع زملائهم فيضعضعون روحهم المعنوية.

نقل الوضع إلى قيادته و طلب منهم المؤازرة و فك الحصار و

إرسال المزيد من العناصر و الذخيرة، كانت الإجابة لا تختلف عن الإجابة يوم أمس أصمدوا في مواقعكم.

بعد اتصاله الذي لم يقدم و لم يؤخر استأذن أحد المساعدين الدخول إلى مكتب النقيب أذن له فدخل و قال: سيدي لدي خبر سيء، أربعة من العناصر قد انشقوا في الليل حيث قفزوا من فوق السور و هربوا أخذين معهم بارودتين روسيتين و مسدسين.

بعد هذه الأخبار المزعجة وجد إبراهيم أنه لا بد من وضع القيادة في صورة الوضع حاول الاتصال لكن الخط كان مقطوعا ًحاول عدة مرات قبل أن يتيقن أن المسلحين المحيطين بالمغفر قد قطعوا خطوط الهاتف الأرضية.

كانت كذلك كل الاتصالات لا تعمل بشكل جيد، كان هناك تشويش على شبكة الاتصال الخاصة بالشرطة حيث كان واضحا استخدام المسلحين جهاز تشويش كما كانت الاتصالات الخليوية ضعيفة و تكاد لا تعمل.

استمر طوال اليوم محاولا الاتصال بقيادته دون جدوى، مساء لم يتمكنوا من تشغيل المولدة الاحتياطية لإنارة

المخفر حيث كان المسلحون منذ يوم أمس قد قطعوا أسلاك الكهرباء المغذية للمخفر، و ها الآن نفذ الوقود من المولدة.

كثف إبراهيم جولاته على أسوار المخفر مخافة أن يتسلل المسلحون إلى المخفر في الظلام، أثناء ذلك استدعى مساعداً يثق به، و طلب منه أن يتسلل في الليل إلى خارج الحي، و يبلغ القيادة الوضع المأساوي الذي آل إليه وضع المخفر.

انتظر النقيب إبراهيم بفارغ الصبر قدوم الصباح لعله يجد به ما يبشره، إلا أن آماله لم تتحقق، فعدد المسلحين الملثمين حول المخفر و في الأبنية المحيطة تضاعف و الرصاص الذي كانوا يطلقونه ازداد و أصيب أثنان من عناصره عدا عن أربعة مصابين سابقاً.

لم يكن هناك أي شيء ليتم إسعاف المصابين به سوى تعقيم الجروح بالكحول ووضع بعض الضمادات.

و ما زاد الطين بلة، عندما نادى المسلحون بمكبرات الصوت - كعادتهم - مطالبين العناصر بالاستسلام، هذه المرة عرضوا المساعد الذي أرسله النقيب إبراهيم و الذي

تحدث عبر مكبر الصوت إلى زملائه طالباً منهم الاستسلام إذ لا جدوى من المقاومة.
أشفق إبراهيم على المساعد، إذ أنه كان يعرفه جيداً حيث اجتمع معه في خدمته سابقاً، و كان واثقاً أن المسلحين ألقوا القبض على الرجل و أرغموه على قول ما قاله، و قد يكون من الممكن، بل و من المؤكد أنهم قاموا بتعذيبه.
خلال اليومين التاليين حاول المسلحون اقتحام المخفر عدة مرات، أصيب خلالها العشرات منهم، بعدها استخدموا جرافة هدمت جزءاً من الجدار و دخلوا إلى داخل المخفر، رموا الزجاجات الحارقة بكثافة فاشتعلت النيران بالمخفر و هرب من تمكن من العناصر عبر الأزقة و قتل بعضهم و ألقي القبض على الباقين.
النقيب إبراهيم استمر يطلق الرصاص من مسدسه و من بندقية أخذها من أحد العناصر المقتولين متراجعاً حتى وصل السطح و هو يختنق من الدخان الكثيف، هناك أصيب برصاص القناصين من على الأسطح المجاورة. عندما وصل المسلحون إلى السطح قاموا برمي الجثة من سطح

المخفر ثم ربطوها بمركبة و جرجروها لعدة ساعات في شوارع الحي حتى تشوهت معالمها تماما ثم رموها في مكب القمامة.

إلى عاصمة الشمال

استقل خليل الحافلة إلى عاصمة الشمال، فبعد أن قررت روزا أن ترجع إلى بلدها، لتولد مولودهما هناك بسبب الأوضاع الأمنية المتدهورة في أقدم بلاد الله، وجد خليل نفسه في وحشة، وعندما اقترح عليه رئيسه الذهاب في مهمة طويلة إلى عاصمة الشمال ليغطي عدداً من الأحداث و الفعاليات، تردد في البداية ثم وافق حيث أنه كان محتاجاً ليغير الأجواء الكئيبة التي كان يعيش بها مؤخراً.
ما زاد في كآبة خليل الحالة الصعبة التي كان بها صديقه كمال، المسكين اتصلت به ليلاً إحدى زميلاته في المصرف و أعلمته أن فاتن قد ماتت و دفنها في اليوم التالي.
كاد كمال أن ينهار ذهب إلى بيت العقيد أبو أحمد فوجد بدل الجنازة أربع جنازات، تصبر قدر استطاعته أمام المعزين و لكن ليلاً في منزله انهار بشكل تام .
كانت حالته من السوء بحيث اضطر خليل أن يسعفه إلى المشفى، بقي ملازماً له لمدة أسبوعين حتى بدأت حالته تتحسن نسبياً إلا أن حالة الحزن العميق و الإحساس

بالذنب كانت لا تفارق كمال.
حاول خليل أن يقنعه مراراً أنه ليس مسؤولا عن شيء و هذا قضاء و قدر، و الموت لا مهرب منه عندما تأتي ساعة الإنسان، ثم أن فاتن لم تتعذب و لم تمتهن كرامتها...تكلم خليل كثيراً محاولا أن يعزي صديق طفولته و شبابه كمال إلا أنه في داخل نفسه لم يكن مقتنعاً كثيراً بحججه، لم يكن يستطيع تصور هؤلاء الوحوش بالأجساد البشرية، هؤلاء الحثالة الذين شوهوا مفاهيم الدين و استباحوا الحرمات .
عندما اطمئن نسبياً إلى حالة كمال ودعه واعداً إياه أن يكلمه يومياً من عاصمة الشمال ثم أبلغ مديره بقبول المهمة و انطلق في رحلته، لا زاد معه إلا حقيبة صغيرة، و مبلغ متواضع من المال، و كاميرة تصوير احترافية.
كانت الحافلة مليئة بالركاب المدنيين و كانوا يتناقلون القصص المخيفة، التي انتشرت في تلك الفترة، عن المسلحين الذين يقومون يقطع الطرقات الدولية بشكل مفاجئ في مناطق مختلفة، ثم يسألون: هل هناك أحد عسكري في الحافلة؟ فإذا وجدوا أحدهم اعتقلوه أو قتلوه

فوراً.

في تلك الأيام سادت فوضى كبيرة على الطرقات الدولية في أقدم بلاد الله، حيث اختلطت الحواجز العسكرية النظامية بحواجز المعارضين المسلحين، و كان بعضهم منشقاً من الجيش النظامي فيرتدون نفس اللباس و يتصرفون بنفس الطريقة، و يحملون نفس الأسلحة.

كان هنالك كذلك حالة من الخيانة المخفية، حيث كان بعض العسكريين قد غيروا ولائهم للمعارضة المسلحة إلا أنهم لم يعلنوا ذلك علانية، فكان المؤيدون للحكومة و العسكريون الوفيون لقسمهم معرضين للوقوع في براثن كل هؤلاء.

ألقى خليل نظرة على ركاب الحافلة، كان كل الركاب يبدون مدنيين، و كان إلى جانبه شابٌ يبدو طالبا جامعياً أو استاذ مدرسة ويحمل على يديه سترة.

استغرق الطريق وقتاً أطول بكثير من الوقت المعتاد للرحلة نتيجة الحواجز العسكرية العديدة، و لكن ما كان يتخوفه الركاب حصل قبيل عاصمة الشمال بمسافة وجيزة، صعد مسلحان يلبسان اللباس العسكري و أعلنا

أنهما من المعارضة المسلحة، أمروا العسكرين بالخروج فلم يتحرك أحد من الركاب، عندها أمر المسلحان الجميع بإبراز هوياتهم المدنية و بدؤوا يتأكدون من الركاب واحدا واحد.

تقاسم المسلحان المهمة فاستلم أحدهما النصف الأول من الحافلة و استلم الثاني النصف الأخير، كان خليل يجلس في المقعد ما قبل الأخير، أحس خليل بشيء غريب يحدث مع جاره الشاب، عندما وصل المسلح إلى المقعد الذي قبلهما، رمى الشاب السترة عن يديه مظهراً مسدساً حربياً، نهض و أطلق رصاصة إلى رأس المسلح الذي كان أمامه مباشرة ثم صوب إلى المسلح الثاني و أطلق ثلاثة رصاصات في صدره سقط على أثرها المسلح الثاني أرضاً.

اندفع الشاب راكضاً فوق جثتي المسلحين إلى باب الحافلة، كان المسلحون في الخارج قد سمعوا الرصاصات و لكن يبدوا أنهم ظنوا أن مصدرها هما المسلحان اللذان دخلا قبلهما حيث كانوا معتادين أن لا يقاومهم أحد و استبعدوا حدوث غير ذلك خاصة أنه لم يحدث تبادل إطلاق نار بل مجرد إطلاق رصاص من سلاح واحد.

لم يعرف خليل لماذا كما و لم يستطع أبدا تعليل ما فعله لاحقا، فقد أنحنى و تناول بندقية الكلاشنكوف التي سقطت من يدي المسلح الأول و اندفع باتجاه الباب خلف الشاب.

قبل أن يصل خليل إلى باب الحافلة سمع أربع رصاصات أخرى، أطل برأسه حذراً من الباب فرأى الشاب قد أصاب مسلحين أخرين كانا مرميين على الأرض حيث تفاجئا بخروجه و لم يتمكنا من الرد عليه، نظر حوله فلم يرى سوى دراجتين ناريتين يبدوا أن المسلحين لم يكونوا كثراً.

صعد الشاب بسرعة إلى الحافلة و هو يصرخ:

-أنا أمن.

و أمر السائق أن ينطلق بأقصى سرعة لعاصمة الشمال.

بقي خليل حاملا البندقية الروسية في يده طوال الطريق واقفاً بجانب الشاب و الذي زاد امتنانه لخليل بعد أن سأله هل هو عسكري فأجابه خليل بالنفي.

بعد ربع ساعة وصلت الحافلة إلى حاجز عسكري على مشارف عاصمة الشمال، فنزل عنصر الأمن من الحافلة و تكلم مع الجنود هناك، فصعد جنود وقاموا بإخراج

الجثتين من الحافلة.
ودع خليل عنصر الأمن عند ذلك الحاجز و سلمه البارودة كذلك.
قبل أن يفترقا شكر عنصر الأمن و الذي تعرف عليه خليل و كان أسمه حسن خليلاً و تبادلا الأرقام الهاتفية و عندما علم حسن أن خليل صحفي و سيقضي بعض الوقت في عاصمة الشمال دعاه لزيارة بيته في أي وقت يشاء .
مساءً عندما أخذ خليل حماماً بالماء الساخن في غرفته بالأوتيل الذي استقر به مؤقتاً ريثما يوجد سكناً أقل تكلفة، أخذ يفكر بما حصل معه اليوم و بهذا الشاب حسن و الذي ظنه طالباً جامعياً و لم يتخيل أنه عنصر أمن.
يبدو أن حسن كان محظوظاً حيث أن المسلحين كانوا قلة، و الحق يقال كان لشجاعته الدور الحاسم في مجرى الأمور اللاحق، تخيل خليل ماذا كان جرى للركاب لو كان المسلحون كثراً و نشب اشتباك بين المسلحين من جهة و بينه و حسن من جهة ثانية، كان من المرجح أن تتحول الحافلة إلى تابوت متحرك لكل من فيها.
و هو يقوم بتنشيف جسده انقطع التيار الكهربائي أكمل

خليل استعداداته للنوم في ضوء شمعة، كان لزاما عليه أن يتعود على الانقطاع المتكرر للكهرباء في عاصمة الشمال حيث كان المعارضون المسلحون يستهدفون كافة مكونات الشبكة الكهربائية من خطوط توتر و أعمدة و غيرها فتقطع الكهرباء عن أحياء كاملة و يستمر الانقطاع حتى يتمكن موظفو طوارئ الكهرباء من إصلاح العطل، ما كان يستغرق أحيانا فترات طويلة نظرا لإطلاق المتمردين النار على أفراد هذه الورش عندما كانوا يعملون على إصلاح الأعطال، خلال سنوات الأزمة سيموت المئات من موظفي طوارئ الكهرباء و هم يحاولون إصلاح الأعطال، منهم من سيقنص على أبراج التوتر العالي فتبقى جثثهم لأيام و أسابيع معلقة في أعلى أبراج التوتر العالي، ويحوم حولها بعض الغربان في مشهد سريالي غريب قد لا يظنه أحد يحدث إلا في عصور غابرة.

إعلان في شريط إخباري

كان كمال يعيش أيامه منعزلاً، لا يكلم أحدا و بعد أن سافر خليل لم يبقى يتواصل مع أحد من أقاربه و أصدقائه، كان الشيخ عابد يشكل الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة.

في الحقيقة كان خليل قد طلب من عابد أن يبقى بجوار كمال في هذه المرحلة الصعبة عليه، حيث كان لعابد روحانية خاصة فكأن الجانب الإيماني في داخله كان ينعكس في حديثه الهادئ و بسمته الدائمة.

عندما كان كمال ينهي عمله و يعود لمنزله مساءً كان عابد يلاقيه إلى منزله و كثيرا ما جلب معه العشاء لمعرفته أن كمال قد لا يأكل شيئاً طوال اليوم.

حتى أن كمال لم يعد للعمل إلا بإلحاح من مدرائه و زملائه الذين كانوا يريدون إخراجه من حالة العزلة التي بات بها.

في إحدى الأمسيات و الصديقان جالسان يشربان الشاي مقابل التلفاز، قرأ كمال خبراً في الشريط الأخباري مفاده

أن القيادة العامة للجيش و القوات المسلحة تطلب عددا من المتطوعين من خريجي الجامعات لتدريبهم كضباط جامعين في الجيش.

في اليوم التالي ذهب شوقي إلى إدارة التجنيد العامة مستفسرا عن الأوراق و الشروط المطلوبة للتطوع، كانت بعض الشروط لا تنطبق عليه، تذكر كمال أنه في أحد جلساته مع فاتن في أحد المطاعم رأت فاتن رجلا خمسينياً جالساً مع فتاة شابة على طاولة في نفس المكان الذي كانا به.

ركضت فاتن إلى الرجل و قبلته ضاحكة ثم عادت إلى طاولتهما، و عندما سألها كمال من الرجل؟ قالت: هذا خالي، و أردفت ضاحكة: يحب النساء كثيراً و لكن هذه أسرار بيني و بينه لكي لا تعلم زوجته فهي شديدة الغيرة.

بعد حوالي نصف ساعة أوصل الرجل الفتاة إلى باب المطعم، ثم عاد أدراجه باتجاه كمال و فاتن، نهض كمال احتراما للرجل و دعاه للجلوس معهما على الطاولة.

كانت سمات الرجل تظهر أنه صاحب مركز و سلطة،

من خلال ثقته و حضوره، سأل الرجل كمال عن أسمه و ماذا يعمل و استفسر عن عائلته، ثم في نهاية الحديث أوصى كمال بأن يعتني بفاتن و أعلمه أنه ضابط برتبة عميد، و هو قائد إدارة التجنيد في المنطقة الجنوبية للجيش، و ترك له رقم هاتفه في حال احتاج لأي مساعدة.

تذكر كمال الرجل و لحسن الحظ كان قد احتفظ بالرقم الخليوي الخاص به، اتصل و طلب لقائه، كان الرجل كما يبدو شديد الانشغال و لكنه أعطى كمال موعداً بعد يومين.

في الموعد المحدد كان كمال واقفاً عند مكتب العميد حسان قائد التجنيد في المنطقة الجنوبية.

لم يتذكره العميد مباشرة و عندما ذكره كمال باللقاء الذي جمعهما غص كمال و هو يذكر أسم فاتن، نظر العميد حسان بتمعن إلى كمال فقد كان العميد حسان من بين المدعوين إلى حفل خطوبة فاتن، عندما قال كمال له أنه يريد أن يساعده لكي يتطوع كضابط جامعي في الجيش لم يعرف العميد بما يجاوب مباشرة، ثم سأل كمال:

-لماذا تريد أن تتطوع بالجيش؟ كما تقول فأنت معفى من الخدمة العسكرية، و وضعك المادي جيد، فأنت لست بحاجة إلى راتب الضابط؟

ثم بعد أن سكت لبرهة تابع العميد:

- من أجل فاتن؟

نظر كمال بصلابة في عيون العميد و قال له:

-من أجلها، و لأجل أمور أخرى.

رد العميد النظرة لكمال و قال له:

- هل تعلم أنها كانت مخطوبة لغيرك؟

أجاب كمال:

-أعلم و هذا لا يغير بالنسبة لي شيئاً.

قال له العميد :

-أجلب أوراقك غداً إلى مكتبي، أنا سأقدمها بنفسي و أؤمن استثناء لك عن الشروط التي لا تنطبق عليك، مع السلامة.

أدار العميد حسان وجهه إلى النافذة معلناً انتهاء المقابلة، خرج كمال، مسح العميد الدمعة التي لم يرد أن يراها كمال في عينيه.

الشيخ عابد

بعد سفر خليل إلى الشمال و بعد التحاق كمال بدورة الضباط الجامعيين أحس عابد بفراغ يملئ أيام حياته، ومما زاد حياته ضجراً أن صديقه الصدوق حنا قد تطوع في منظمة الصليب الأحمر و أصبح يمضي أغلب أوقاته في العمل الإغاثي و التطوع لأعمال الإسعاف.

في هذه الأثناء نشبت اشتباكات عسكرية قوية في جنوب العاصمة و تسلل معارضون مسلحون إلى أبنية عالية في الأحياء الجنوبية، كانت تؤمن لهم مواقعهم هذه سيطرة بالنيران على نصف العاصمة، تحركت القوات الحكومية مباشرة و اشترك في القتال المستميت رجال الشرطة و الأمن و الجيش و المتطوعون و رجال أحزاب، خلال ثلاثة أيام تم القضاء على عدد كبير من المتسللين و انسحب الباقون.

أثناء هذه المعارك توضعت دبابة في أول الشارع الذي كان يسكن به عابد و أخذت تطلق قذائفها باتجاه مواقع المسلحين المعارضين.

كان البناء الذي يسكنه عابد يهتز عند كل قذيفة تطلق

و رغم أن الجنود في الأغلب كانوا ودودين، و حتى أن قائد التشكيل المتمركز في منطقتهم قد جال بنفسه على السكان المدنيين و طمأنهم أنه لا خطر عليهم و استفسر عن ما ينقصهم، كما و نسق دخول كافة الاحتياجات إلى الأحياء التي دارت فيها الاشتباكات خلال الأيام القليلة التالية.

المسلحون بعد أن تكبدوا خسائر بشرية كبيرة انسحبوا جنوباً، باتجاه العشوائيات التي انطلقوا منها لغزو المدينة، و عاودوا التمركز و التحصن بها، حيث حاصرتهم القوات الحكومية دون أن تجرؤا على اقتحام مناطقهم، حيث أظهرت معارك الثلاثة أيام السابقة أنهم مسلحون جيداً و حتى في حالات عديدة يمتلكون سلاحاً أحدث من التسليح الحكومي، حتى أنه لديهم أسلحة مضادة للدروع و للطائرات، كما و أنهم مدربون و منظمون في مجموعات قتالية و العديد منهم له ميول دينية متشددة و قاتل في حروب بمناطق أخرى من العالم، و هؤلاء في العادة يقاتلون حتى الموت أو يقومون بعمليات انتحارية بتفجير أنفسهم، و من جهة ثانية، اتضح أن المسلحين المعارضين لديهم امداد

كبير بالذخيرة و المواد الغذائية والطبية و الأموال، حيث أن حصارهم قد يطول و قد يكون عديم النفع، فلهم قنوات عديدة للتسلل و التزود بما يحتاجونه سواء من فوق أو تحت الأرض.

ورغم عودة الحياة الشبه طبيعية إلى الحي الذي يسكنه عابد، واستمرار انتشار القوات الحكومية على أطرافه لتأمينه من أي محاولة هجوم جديدة، بقي إحساس بعدم الطمأنينة في صدر عابد.

عابد لم يكن قد حدد موقفه بشكل قاطع في هذا الصراع هو إلى جانب من، و لكن أخلاقه و معارفه الدينية كانت تقول له أنه إذا لم يستطع أن يصلح بين الفريقين المتخاصمين و لا سيما أنهما على نفس الدين مع اختلاف طوائفه، فعليه أن يتنحى جانباً و لا يحمل وزر سفك دماء المؤمنين.

بدأ عابد يبحث جدياً في امكانية بيع بيته و شراء بيت في منطقة أخرى، حتى اتيحت له الفرصة المناسبة، بيت كبير يشغل الطابق الأرضي بأكمله في بناء حديث و حوله حديقة كان صاحب المنزل مسافراً و عند نشوب الأزمة في

البلاد قرر عدم العودة و أوكل إلى أقربائه بيع المنزل.

لم يكن المنزل في مركز المدينة بل في ضاحية العليلة، و هي بلدة بجانب العاصمة تحيط بها البساتين و بها مقر قيادة عسكري مهم، و للصدفة فكان البناء الذي به المنزل الذي يرغب عابد بشرائه شبه ملاصق لمقر القيادة إذ لا يفصله عنه سوى عدة أبنية و كان هذا العامل في نظر عابد نقطة استقرار للمستقبل، فقد بدا واضحاً أن المعارضين المسلحين يريدون اقتحام العاصمة من الجنوب بينما تقع ضاحية العليلة إلى شرق العاصمة، عدا عن أن السكان هنا مسالمون و لا رغبة لهم بالحرب و من جهة أخرى فالبناء العسكري محمي بقوات كبيرة و من الصعب اختراقه.

خلال شهر أتم عابد عمليات البيع و الشراء و استقر في بيته الجديد، استمرت الحياة هانئة مع عابد عدة شهور أخرى قبل أن تبدأ المشكلات بالتسرب إلى المنطقة الجديدة التي استقر بها، غيّر المسلحون تكتيكهم بعد فشل هجومهم الكبير من الجنوب، و قرروا محاصرة العاصمة من جميع الجهات، و قطع جميع طرق الامداد و

مقومات الحياة عن العاصمة.

بدأت مجموعات مسلحة تتسرب إلى بلدة العليلة، و بدأت تستثير الشباب بخطاب ديني حماسي لدعم المعارضة المؤمنة ضد السلطة الطائفية الكافرة، و بدأت الاجتماعات الدينية تتحول إلى اجتماعات لتعبئة المقاتلين و شحنهم بشحنة الكراهية و تبرير العنف اتجاه السلطة و أنصارها.

كان من بين الوافدين شيوخ من دول النفط، و معهم مقاتلون جبليون أشداء لا يتكلمون العربية إلا ببضع كلمات ذات مدلول ديني، متعطشين للدماء، جاؤوا ليسفكوا الدم و لم يكن شيء ليقف في وجههم.

لاحظ عابد هذه التغيرات بقلق إلا أنه آثر الانكفاء و عدم التدخل في شؤون البلدة حيث أنه غريب و لا يعرف فيها أحداً بشكل جيد.

في فترات لاحقة بدأت الهجمات على المقر العسكري تتكثف و أصبحت عمليات القنص شبه يومية بين الطرفين.

في هذه الأثناء وصلت موجة تفجير و سرقة المنشآت

الحكومية إلى ذروتها، و كان القطاع الكهربائي هو المستهدف الأول، سُرقت الأسلاك و بيعت كنحاس ، فُجرت المحولات و الأعمدة، كانت السلطة تؤكد أن المسلحين يقفون وراء هذه الأفعال، أما المسلحون فجل ما كان يهمهم هو اقناع المواطنين أن الحكومة تمارس التمييز ضدهم حيث تزود الكهرباء للمناطق الموالية لها و تقطعها عن المناطق الداعمة للمعارضة.

و حيث أصبحت قضية انقطاع التيار الكهربائي بعدما كانت تستمر ساعات تستمر لأيام ، و أصبحت قضايا تدبير الأمور المنزلية أشد صعوبة، تواصل عابد مع عديله الساكن في دير الطيور، و حيث أن الأوضاع المعيشية هناك كانت أفضل نسبياً و الحالة الأمنية أهدأ ، قرر عابد أن يرسل زوجته و أولاده إلى بيت عديله، حيث تستأنس الأختان ببعضهما و يتمكنوا من غسيل الملابس بوجود الماء و الكهرباء هناك.

ليلة في العليلة

كان الوقت حوالي الساعة الثانية ليلاً، كان نوم عابد قلقاً هذه الليلة فقد استيقظ عدة مرات و أخذ عدة جرعات من الماء و لكنه في المحصلة لم يتمكن من أن يغفو، نهض بتثاقل أشعل ضوء الشاحن الكهربائي حيث كانت الكهرباء مقطوعة كعادتها هذه الأيام، بحث عن المصحف و سجادة الصلاة، فجأة استرعى انتباهه صوت ضربات أداة معدنية ما على جدار أو شيء مشابه.

أصاخ السمع كانت الأصوات قريبة كما و لو أنها تأتي من القسم الخلفي من المنزل، سار على مهل، وصل إلى الغرفة الأخيرة في المنزل، أضاء الجدار، ما رآه كان حفرة بقطر نصف متر في الجدار و رأسين ملتحيين يظهران من داخلها و فوهتي بندقيتين مصوبتين نحوه.

استمر السكوت عدة ثواني، تكلم عابد أولا قائلاً: السلام عليكم من أنتم؟

أجابه صوت أكبر المسلحين: ماذا تفعل هنا؟

ـ أنا صاحب المنزل ثم أن المؤمن يرد تحية السلام الملقاة له،

و بما أنني صاحب المنزل فلي الحق أن أسألكم من أنتم؟
أجابه المسلح الأقل عمراً: نحن مقاتلون من جبهة نصرة المؤمنين نحارب لتطبيق الشريعة و حرية الشعب و بما أنك تحمل مصحفاً و سجادة صلاة فلا شك أنك مؤمن و تقف إلى جانبنا؟...

بدا هذا السؤال أحمقاً لعابد في هذه الساعة المتأخرة من الليل من رجال يكسرون أحد الجدران في منزله و يوجهون البنادق إلى صدره، استدرك الموقف قائلاً:

ـ طبعاً... طبعاً ... لا داعي لأن تكملوا كسر الحائط سأذهب إلى البوابة الخلفية و افتحها لكم.

عندما فتح عابد البوابة الخلفية دخل حوالي العشرة رجال إلى المنزل فقال لهم: تفضلوا تفضلوا إلى غرفة الاستقبال ريثما أقوم بتحضير واجب الضيافة لكم.

أجلس عابد المسلحين في غرفة الاستقبال و ذهب إلى المطبخ، بدأ يجهز إبريق الشاي و هو ساهم و مستغرق في هذه المصيبة التي حلت على رأسه، فإذا استقر المسلحون في بيته و بدؤوا بإطلاق النار على القوات الحكومية فسترد القوات الحكومية و ليس مستبعداً ان تضرب البناء

بالمدفعية، استمر عابد بتحضير الشاي و هو يفكر ما هي الحجة المناسبة التي سيقدمها للمسلحين لكي لا يتخذوا منزله كوكر لعملياتهم.

ادخل عابد الشاي إلي المسلحين و وزع الكؤوس، لم يستطع أن يرى عابد وجوههم في الضوء الخافت للشاحن الكهربائي الذي بدأ ضوئه يخفت، إلا أنه سمع صوتاً أشبه بسباب مفاجئ من أحد المسلحين لعله أصغرهم و الذي كان يكلمه عند الفتحة في الجدار، فجأة سمع عابد صوت زعيمهم يقول له بهدوء تعال إلى هنا...فسأل عابد: هل هناك شيء ...أترغبون بزيادة السكر؟

فقال له المسلح الذي بدا أنه زعيم المجموعة: لا تقلق ...فقط تعال.

عندما اقترب عابد من المسلح أحس بأن شيئاً ثقيلاً أطبق على رقبته كانت يد المسلح ثقيلة تدل على اعتياده ممارسة الأعمال البدنية فلعله كان عتالاً أو عامل بناء سابقاً، سأله زعيم المسلحين:

-ما هذا الذي صببته لنا يا ابن الكلب، هل وضعت لنا سماً في الشاي؟ إذا أنت من أعوان النظام و تتظاهر

بالتدين؟
أسودت الدنيا في عيون عابد أكثر حتى مما هي سوداء في واقعها، و أحس بدوار يأخذ رأسه إلا أنه تمالك نفسه قائلاً: معاذ اللّه ماذا تقول يا رجل أعطني الكأس لأشرب منها.
تناول عابد كأس الشاي بسرعة و تجرع جرعة كبيرة، لم يتمالك عابد من صرخة الاشمئزاز التي أطلقها و التي اقتربت إلى استفراغ كل ما في جوفه نتيجة طعم حمض الليمون القوي في الشاي.
فهم عابد أنه أخطأ في العتمة ما بين قطرميز الحمض و قطرميز السكر، فحاول أن يتصنع بساطة الموقف أو يتدرع بالظلام، حتى حاول ان يصطنع ضحكة، كل هذا لم ينفعه ، حيث أمر الزعيم اثنين من المجموعة أن يعصبا عيني عابد و يقيدوا يديه خلف ظهره و يقتادوه إلى المحكمة الشرعية بتهمة محاولة تسميم الثوار.

المحكمة الشرعية

وصل مرافقو عابد به بعد مسير نصف ساعة إلى درج يتجه للأسفل فعرف أنه أصبح في قبو، فكوا العصابة عن عينيه و رموه في قبو كان به حوالي الخمسة عشر شخصاً غيره، كما في كل الأزمان المصيبة تجمع، فالتم السجناء على بعضهم، كان عابد يكاد يكون الشخص المدني الوحيد بينهم، و من خلال أحاديثهم أتضحت صورة الأحداث بالنسبة لعابد.

منذ يومين أختطفت مجموعة جهادية تتخذ من العليلة مقراً لها سيارة ضابط مع سائقه، و قال البعض أن السائق هو من سلم الضابط للمسلحين، و في كل الأحوال أمهل قائد المقر العسكري الجماعات المسلحة في العليلة أربع و عشرين ساعة لإعادة الضابط و السيارة، و لتأكيد جديته قام بإحتجاز عدة حافلات مليئة بالركاب من أهل العليلة، و حيث أن منطق تصرفه كان أن وجهاء العليلة سيضغطون على المسلحين لكي يطلقوا سراح الضابط مقابل إطلاق سراح أقربائهم.

لكن منطق الواقع كان مغايراً ، فالمجموعة التي اختطفت الضابط قامت على الفور بإعدامه و لكنها لم تبث تسجيلاً بذلك و لا أعلن أي فريق عن مسؤوليته عن ذلك، و من جهة ثانية جن جنون أهل العليلة، فانتشروا بين البساتين المؤدية إلى المقر العسكري، و قاموا باختطاف كل من طالته أيديهم من الجنود القادمين من إجازاتهم، ثم قاموا بتسليمهم إلى المحكمة الشرعية و التي أنشأتها جماعة متشددة تطلق على نفسها جبهة نصرة المؤمنين.

إذاً كانت الأمور قد وصلت منعطفاً خطيراً ، و كان عابد واقعاً في خضم هذا الصراع الرهيب، حيث لم يكن أي من الطرفين يملك أن يتراجع عن ما قام به، فلا القائد العسكري سيخلي المحتجزين لديه دون رجوع الضابط المخطوف، ولا مسلحوا العليلة سيطلقون سراح الجنود المعتقلين دون رجوع مخطوفيهم.

في الصباح عُقدت المحكمة الشرعية، أول ثلاثة عرضوا عليها صدر الحكم عليهم بالإعدام رمياً بالرصاص، و هو ما نفذ مباشرة في نفس القبو المجاور لقبو الاعتقال، حيث كان هو مقر المحكمة الشرعية، كان سبب الإعدام

انتمائهم الطائفي حيث سؤلو سؤالين ما اسمك و ما دينك، كان انتمائهم الديني سبباً كافياً لإعدامهم، سمع المسجونون رشقات الرصاص في الجوار ثم بعض الأنين، ثم عدة رصاصات مفردة ثم ساد الصمت.

اختار السجانون دفعة جديدة ليتم محاكمتهم بعد قليل كان أول الثلاثة عابد.

كان مشهد المحكمة من أغرب المشاهد التي رأها عابد في حياته، ثلاثة رجال ملتحين أخذ الشيب الجزء الأكبر من لحاهم الطويلة، أوسطهم يلف عمامة و آخر يضع شماخاً، كانوا مسلحين، يضعون رشاشاتهم على الطاولة أمامهم بالإضافة إلى كتاب مصحف، كما كان أمام أحدهم ساطور لحام و خرقة مدماة.

كان منظر المحكمة يكفي وحده لإثارة الذعر، حنت إلتفاتة من عابد إلى الجدار المجاور فوجد المساجين الثلاثة الذين سبقوه ما زالوا مرمين جانب الجدار، و اثنين من المسلحين الملثمين يجرونهم إلى حفرة الصرف الصحي و التي يبدوا أنه تقرر أن تكون قبراً جماعياً و ذلك لكي لا يُتعب المسلحون أنفسهم بإخراج الجثث إلى أعلى أو حفر

قبر في أرضية القبو القاسية.
أيقن عابد بهلاكه فنظر بشجاعة في وجه أعضاء المحكمة و قال لهم : السلام عليكم.
سأله أوسطهم و هو من يضع العمة: ما اسمك؟
فقال: عابد الملا. نظر أعضاء المحكمة ببعضهم باستغراب فعائلة عابد كانت عائلة مشهورة بالتدين و بعلماء الدين الذين أنجبتهم.
بدأ الثلاثة يدققون في بعض الأوراق الثبوتية التي كانت في محفظة عابد و كان منها دفتر العائلة:
-أنت من المرتدين الكفار إذا؟
ـ لماذا حكمت علي بهذا الحكم الشرعي القاسي؟
ـ إن اسم ابنتك و اسم ابنك هو من الأسماء التي تسمي بهم الطائفة المعادية لنا.
فقال له عابد:
-أنظر إلى اسم ابنتي و ابني الثاني.
نظر أعضاء المحكمة ببعضهم مجدداً ، كانت الأسماء هذه تخص طائفتهم حصراً.
ثبت عابد نظره في كبيرهم و قال:

-هل تعرف أنك نفسك تتبع مذهب أعدائك، إن لباسك و طريقة تكلمك يكشف لي من هو إمامك فاعلم إن إمامك هو من قال البيت التالي:

إذا كان حب آل محمد ذنبا فأحبب إلي ذلك من ذنبٍ

بعدها جاد فؤاد عابد بكل ما يحفظه قلبه من آيات و أحاديث شريفة تؤكد على وحدة المؤمنين و عدم جواز اقتتالهم، كان عابد يتكلم بإلهام و كأن الكلام ينهمر شلالاً من وجع و آلم، لم يكن مجرد كلامٍ عاطفي بل كان كلام شخصٍ فقيه بالشرع، يشفع كل كلمة بالشاهد القرآني و الدليل الشرعي.

عندما سكت عابد نظر كبير القضاة إليه قائلا:

-إن مكانك هو ليس بين المساجين بل هنا بين أفراد المحكمة، من اعتقلك؟

أجابه عابد:

-رجالكم و كل ذنبي أنني أكرمتهم و قمت بتجهيز الشاي و بسبب الظلام أخطأت بوضع حمض الليمون بدل السكر، فيالذنبي الذي استحق عليه المحاكمة.

قرر أعضاء المحكمة أن يخلوا سبيل عابد و خيروه إذا

أحب أن يبقى بينهم أو حتى أن ينظم إلى أفراد المحكمة، أعتذر عابد قائلا أنه ترك أهله في دير الطيور و هو قلق عليهم و يرغب بالالتحاق بهم، تشاور أعضاء المحكمة موافقين و قالوا له أن الطريق حالياً من العليلة إلى دير الطيور غير آمن و لكنهم سيؤمنون له وسيلة نقل خلال عدة أيام و خلال هذه الفترة سيبقى في ضيافتهم.

وافق عابد و طلب فقط طلبا واحداً:

-اسمحوا لي أن أبقى خلال هذه الفترة مع المساجين أواسيهم و أخفف عليهم سجنهم بما استطيع أقرأ لهم القرآن و أدعوهم للتوبة النصوح.

فقرر أعضاء المحكمة أن لا مانع.

مع المحكومين بالموت

لن ينسى عابد أبدا الأيام الأربعة التي قضاها في صحبة سجناء المسلحين، كان كل يوم يتم الاتصال بالقائد العسكري من الهاتف النقال لأحد السجناء و يقال له أن فلان الفلاني من عناصرك لدينا، هل نعدمه أم ستطلق الرهائن، كان جوابه دائما بالنفي فكان يوضع المعتقل على جانب الحفرة التي كان هو نفسه قد حفرها منذ قليل و يتم إعدامه برصاصة في الرأس كل ذلك وخط الهاتف مفتوح.

أحد المساعدين و الذي كان له معزة خاصة لدى قائد الموقع نتيجة قربة بعيدة بينهما، أخرجوه إلى أحد الأبنية المواجهة للموقع العسكري ليتمكن قائد الموقع من رؤيته، ثم تم إعدامه برشقة رصاص في ظهره فسقطت جثته من أعلى البناء.

كان هناك عدد من المساجين يتم استجوابهم أو بالأحرى تعذيبهم، حيث لم يحظى كل المساجين بموت سهل، حيث كان عدد من الجنود الموقوفين ممن كانوا

يتواجدون على الحواجز فكان أهل العليلة يعرفونهم، فمن كان جيداً معهم، رحموه ونال موتاً سهلاً، و من كان يقوم بشتمهم أو التضيق عليهم عذبوه.

كان أحدهم رامي مدفع فسألوه كم قذيفة كان يرمي مدفعك يومياً؟ فقال لهم حوالي الثلاثين، فسألوه كما صار له في خدمته في هذا الموقع؟ فقال حوالي نصف عام، فقاموا بضرب مئة و ثمانين يوم بثلاثين قذيفة فكانت النتيجة خمسة آلاف و أربعمئة، فحكموا عليه بعدد مماثل من الجلدات ثم الإعدام، طبعاً مات المسكين في اليوم الثالث أو الرابع و هو لم يكمل المئة الرابعة من الجلدات.

كان عابد طوال الوقت يحاول مواساة السجناء فكان يجلب لهم الماء و بقايا الطعام الذي كان يرميه المسلحون، كما كان يحاول أن يغسل آثار التعذيب بالماء و يضع ما يستطيع من ضمادات عليها، كان يقرأ لهم القرآن فكان السجناء يجدون بعض العزاء به.

عندما كان يعرف عابد أنه قد حان موعد إعدام أحد السجناء، كان يجلب له مصحفاً، و يقول له: لقد صدر الحكم بإعدامك فتب توبة صادقة إلى الله و استغفر الله

من ذنوبك، فباب التوبة مفتوح حتى تشرق الشمس من المغرب فعسى اللّه يرحمك في الأخرة بعدما لم يعد هناك أمل من الرحمة في الدنيا.

كان من بين المسجونين واحدٌ يطلقون عليه الجغل، لم يعرف عابد ما سبب هذه التسمية إلا أن سجانيه يبدوا أنهم كانوا يعرفونه بشكل جيد، كان يتم تعذيبه طوال اليوم حتى يتعب الجلادون حيث أنهم كانوا يأتون بالكراسي الخشبية و يكسرونها على رأسه و هم يصرخون أعترف بما فعلت .

في اليوم الأول أعترف لهم الجغل أنه قد اغتصب فتاة على الحاجز عمرها أربعة عشر عام بأكثر من طريقة ، زاد ضربهم له حتى أغمي عليه، في اليوم الثاني اعترف أنه كان يغتصب النساء اللواتي تم اعتقالهن في المقر العسكري، و ايضاً تعرض لضرب مبرح حتى غاب عن الوعي، في اليوم الثالث اعترف منذ الصباح أنه سبق له أن اغتصب أخته.

لم يتم تعذيب الجغل في هذا اليوم، سأل عابد أحد السجانين ما السبب فأجابه أنه صدر الحكم بإعدامه و

سينفذ غداً، ذهب عابد إلى الزاوية التي كان الجغل مرمياً بها أجلسه و سأله:

- هل تريد أن تشرب؟

فأومئ له بالإيجاب.

جلب له إبريق ماء كامل شربه الجغل بدفعة واحدة، حيث وضع فمه و لم يرفعه عن الأبريق حتى أفرغه كله كما لو أنه لم يشرب منذ دهر.

سأله:

- هل أنت جائع؟

قال:

-نعم.

جلب له رغيف خبز لفه الجغل و وضعه في يده و أخذ ينظر إليه.

قال له عابد بهدوء:

-يا جغل أو ما تدعى به، فلست أعرف لك أسماً غيره، لقد صدر الحكم بإعدامك يوم غد، فخذ هذا المصحف و تب توبة صدوقة إلى الله. فباب التوبة مفتوح حتى تشرق الشمس من مغربها.

ثم تابع بعد برهة قصيرة:

-لا أعرف هل هذا الذي اعترفت به تحت التعذيب هو حقيقة أم أنك قلت ذلك لتتخلص من التعذيب، على كل حال استغفر اللّه و تب توبة نصوح لوجه اللّه.

نظر إليه الجغل بعيون حمراء و لم يجاوب، لم يعرف عابد ما الذي دفعه ليكرر سؤاله:

ـ هل قلت ما قلت أنك صنعته نتيجة التعذيب؟

بقي وجه الجغل جامداً في نفس الوضعية :

ـ لا .. لقد كان كلامي حقيقة...

نهض عابد و خرج إلى خارج المبنى الذي كانت تتم به المحاكمات و يسجن السجناء.

عاد عابد إلى الداخل بعد ساعة فوجد الجغل على نفس الوضعية التي تركه بها، و رغيف الخبز الملفوف ما زال في يده، نده عليه فلم يجبه، لمسه بيده فمال على جنبه و سقط أرضاً، لقد كان ميتاً.

الرجوع إلى بيت العائلة

في اليوم الخامس قام مسلحان بتأمين ذهاب عابد إلى دير الطيور، وجد هناك عائلته و أقاربه، بكى بكاء من رأى الموت بعينيه و رجع إلى الحياة بعد أن قدر أن لا عودة له و هو يحضن أولاده و زوجته و يقبل وجوههم الباكية كذلك.

بعد حوالي أسبوع وفر عديل عابد سيارة نصف شحن، أقلت عابد مع عائلته إلى الأوتستراد الدولي الذي يصل العاصمة بالشمال، و من هناك تمكن من الرجوع إلى العاصمة، عندما دخل عابد إلى بيت أهله في حي الزاهرية استقبلوه ببكاء مخلوط بدعوات الابتهال و الحمد فقد كانت أخبار عابد و عائلته مقطوعة منذ أكثر من أسبوعين، و ما زاد فرحة العائلة أن أخا لعابد كان معتقلاً لدى أحد الأجهزة الأمنية و قد عاد بدوره إلى منزل العائلة قبل يومين.

بعد الاستحمام و أخذ قسط من الراحة و تناول الطعام التقليدي اللذيذ في بيت والده طلب عابد أن ينعزل بنفسه

في العلية المبنية على سطح البناء، هناك أخذ عابد مصحفه و سجادة الصلاة و صلى و حمد الله. بعدها جلس ينظر إلى أنوار المدينة المتلألئة و هو يفكر في نفسه ماذا تخبئ هذه البيوت خلف جدرانها؟ كم من الوحوش الأدمية في هذه المدينة و الذين ينتظرون فقط أول فرصة ليرموا رداء الإنسانية عن كينونتهم و يظهروا وحشيتهم التي تضاهي توحش أكثر الضواري ضراوة.

كم من الجهلاء الذين سيرتكبون أفظع الأفعال باسم الدين؟ كم من البسطاء الذين يمكن غسل دماغهم و جعلهم يقتلون و يخربون باسم الدين؟ سرت رعشة خفيفة في جسم عابد.

تذكر عابد وجوه المحكومين بالموت في العليلة، تذكرهم واحداً واحداً ، قرر أنه سيقوم الليل ليصلي لأرواحهم .

في هذه الأثناء سمع صوتاً يستأذنه فقال لأخيه الذي عرفه من صوته تفضل يا ساجد تفضل..

كان ساجد هو الأخ الذي تم اعتقاله و عاد إلى العائلة كان يحمل في يده صينية عليها دلة قهوة .

جلس الأخوان مقابل بعضهما يشربان القهوة و نسمات الليل

العليل تداعبهما ، كان ساجد أقرب أشقاء عابد إلى نفسه و رغم اختلاف آرائهم بصدد الأحداث الجارية فقد كانت سعادة عابد برؤية أخيه سالماً لا توصف، فجأة سأل عابد أخوه: قل لي كيف اعتقلوك و لماذا و كيف عشت أيام اعتقالك؟

ـ أنت تعرف أنني لا أحب النظام، و حيث كنت أكمل إكساء شقتي في أحد الأبنية العالية في ضاحية الحارسية كنت أراقب من النافذة بعض التحركات لأليات الجيش النظامي و كنت أصورها على موبايلي، و موبايلي أساساً مليء بمقاطع و أغنيات مناهضة للنظام، و فجأة دخل مجموعة من الجنود البناء، كانوا يفتشون عن أحد المراسلين الذي كان فيما يبدوا يبث بثاً مباشراً لأحد القنوات الفضائية الخارجية، ظنوا أنه أنا و بعدما فتشوا محتويات موبايلي اعتقلوني و اقتادوني إلى أحد المقرات العسكرية.

ـ هل عذبوك؟

ـ في البداية لا فقط بعض الضربات و الركلات المعتادة من الجنود أثناء المسير و الاحتجاز المبدئي، سلمني الجنود

لأحد فروع الأمن، هناك أخدوا مني محفظتي و موبايلي و جعلوني أمضي أن هذه هي الموجودات التي معي ثم ادخلوني إلى غرفة المعتقلين، إن التواجد فيها هو تعذيب بحد ذاته، أكثر من مئة و خمسين شخص في غرفة لا تتجاوز مساحتها عشرين متر، تنام واقفاً، تقضي حاجتك في نفس الغرفة، طعام لا يشبه الطعام، باختصار ظروف غير إنسانية.

ـ من حقق معك و لماذا أخرجوك؟

ـ حقق معي عدد من الضباط أو المساعدين لا أعلم فقد كنت معصوب العينين أثناء التحقيق، كنت أنكر التهمة بأني مراسل للفضائيات الخارجية، فينزلوني إلى أسفل و يضربونني ضرباً مبرحاً، هكذا عدة مرات، ثم ملوا مني و أعلموني أنهم سيعدمونني لأنني من أنصار المعارضة المسلحة.

ـ طبعا كانوا يخيفونك؟

ـ المضحك و المبكي في الأمر أنك لا تستطيع أن تقول ذلك، أنزلوني إلى غرفة صغيرة بها مصباح أصفر واحد، كرسي و حبل مشنقة، قالوا لي أقرأ القرآن لساعة قبل أن

نعدمك، رجعوا بعد ساعة ، قالوا لي: هل ستعترف؟ قلت لا شيء عندي لأعترف به، أوقفوني على الكرسي وضعوا الحبل في رقبتي قالوا لي أنطق الشهادتين، تشاهدت على روحي و ودعت الحياة و تجهزت للقاء وجه ربي، بعدها ضربوا الكرسي و علقت بين الحياة و الموت، ثم أمسكوني من رجلي و رفعوني و قالوا لي: هل نكمل أم ستعترف؟ قلت لهم: لقد تشاهدت و جهزت نفسي للقاء ربي فأكملوا... عندها أنزلوني و أرجعوني إلى غرفة المعتقلين و هم يشتموني، بعد يومين حولوني إلى سجن مدني هناك تمكنت من التواصل مع والدنا و الذي كان لم يترك فرعا أمنياً إلا و سأل عني فيه، طمأنته على حالي، وكّل لي محامياً قدم طلب إخلاء سبيل لي فأطلق القاضي سراحي لعدم وجود أي أسباب قانونية لاعتقالي.

ـ أنت قلت أنهم أخذوا منك محفظتك و موبايلك؟

ـ عند نقلي من سجن الأمن إلى السجن المدني سلموني إياهم و قالوا لي تأكد من النقود و باقي أوراقك، كانت النقود ناقصة حوالي ربعها و لكني لم أتكلم، فلو أخذوا كل النقود ما تكلمت، على كلا خسارة بسيطة.

أخذ عابد في هذه الأثناء يفكر فيما رأى و فيما سمع من ساجد، مهما تكن الدولة و أجهزتها سيئة تبقى لها ضوابط تحكمها و قوانين و إجراءات و يعمل بها مختلف أنواع البشر و منهم الكثير من الناس البسطاء الطيبين، و قد تسيء و تتعسف و لكن ما تفعله الفوضى يجعل ظلم الدولة و تعسفها نقطة في بحر الظلم الذي تجلبه الفوضى، هناك وحوش كذلك في أجهزة الدولة و لكن أقلها عليهم رقابة، فلا يصل إجرامهم إلى الإجرام الذي لا ضوابط له إلا الحقد و الجهل الديني و الذي رآه في العليلة، فأخوه قد عاد حياً بينما من معتقلي العليلة لم يعد أحد.

تذكر الجغل فسأل ساجداً:

-هل مات أحدٌ أثناء الاعتقال أو التعذيب؟

- لم أرى أحداً مات رغم أنه من كان مثبتاً انتمائه للمسلحين المعارضين كان يعذب أكثر من الأخرين، لكن السجناء الذين كانوا قبلي قالوا لي أن البعض قد مات ممن كان جسمهم لا يحتمل ظروف الاعتقال أو لديهم مشاكل في القلب، حيث لم يستطيعوا تحمل ظروف الاعتقال.

سمع الأخوان آذان الفجر فقاما ليصليا الفجر، صلى عابد إماماً و صلى أخوه خلفه.

قائد في صفوف المعارضة

كانت حياة عبد الرحمن تشهد تحولا خطيراً، في قريته انتشرت المظاهر المسلحة و انتسب أغلب أفراد عائلة عبد الرحمن إلى إحدى المجموعات المسلحة ذات التوجه الديني المتطرف.

اشتدت الضغوطات عليه لكي يترك العمل في الحكومة ، أو كما أصبح يطلق عليه أن ينشق، في أحد الأمسيات و بعد صلاة العشاء في جامع البلدة طلب عبد الرحمن أن يحادث شيخ الجامع على انفراد.

ـ يا شيخي إنني محتار، هل ابقى في عملي الذي اعتاش منه، ام اتركه حيث تصر علي عائلتي أن انشق عن النظام و أعلن انضمامي للمعارضة؟

ـ يا عبد الرحمن أنت رجل مؤمن و عائلتك جميعهم رجال مؤمنون و صالحون، فلا شك أنك لن تقف إلى جانب الطاغية الكافر و هو يحاول أن يستمر في حكم البلاد و العباد.

ـ إذا يا شيخي اترك عملي في الحكومة؟

ـ ليس مباشرة يا عبد الرحمن فأنت في موقعك قد تكون مفيدا لثورتنا المؤمنة، ستنقل لنا أخبار تحركات النظام و أزلامه و سنكلفك بمهام لدعم الثورة.

أصبح عبد الرحمن يذهب صباحاً إلى عمله، يراقب كل شيء يتكلم مع بعض السائقين في الخفاء، يتظاهر أمام الموالين للدولة بأنه واحد منهم هكذا في الصباح، مساء عندما كان في قريته كان يحضر الدروس الدينية و التي كانت تتبع بتدريب على السلاح و الذي كان يتم تخزينه في الجامع، و نظراً لكون عبد الرحمن لاعب مصارعة سابق فقد كلف يالتدريب البدني للمقاتلين الجدد، فكان يدربهم تدريبات اللياقة البدنية بالإضافة إلى بعض حركات القتال القريب.

أصبح عبد الرحمن من الدائرة الضيقة لشيخ الجامع و الذي كان هو في الواقع القائد الروحي للتحرك المعارض في القرية.

و لتمتين الصلة بينهما قام شيخ الجامع بتزويج عبد الرحمن أحد بناته، صغيرة و جميلة و مطيعة، مرباة تربية دينية ، و هكذا بعد شهرين اعلمت عبد الرحمن بخجل أنها حامل.

عرف عبد الرحمن أن للشيخ صلات قوية بأحد المشايخ في إحدى دول النفط، و كان ذلك الشيخ يجمع التبرعات من الأغنياء في دولته و يرسلها إلى شيخ الجامع ليمول عمليات المعارضة في أقدم بلاد الله، كما أنهم يقومون بتهريب السلاح عبر الحدود و يجمعونه في الجامع و في أماكن سرية اخرى.

كما و قاموا باستمالة عددٍ من العسكريين حيث بعضهم انشق عن الخدمة العسكرية و كون مجموعات مسلحة تتبع للمعارضة، و بعضهم استمر يعمل في الجيش النظامي، يقدم المعلومات للمعارضة و ينتظر اللحظة المناسبة للانشقاق.

في أحد الأمسيات تحدث شيخ الجامع مع عبد الرحمن:

ـ لقد صدرت الأوامر من قيادات الثورة بتنظيم الحراك المسلح في كل أرجاء البلاد و ذلك من خلال تأسيس كتائب مقاتلة تتبع لألوية و هكذا.. و نحن الأن بطور تأسيس لواء مقاتل و أرغب أن تكون أنت قائد إحدى الكتائب في هذا اللواء... و حيث أنه أصبح لدينا العدد الكافي من المقاتلين و أصبح لدينا مخزون كافي من

السلاح.. فنحن الأن بحاجة لعدد من المركبات ذات الدفع الرباعي لكي نقوم بالعمليات العسكرية في المناطق الريفية كما أننا بحاجة إلى عدد من سيارات البيك أب لنضع عدداً من الرشاشات الثقيلة على ظهرها كما أننا بحاجة لعدد من الشاحنات لكي ننقل المقاتلين و الذخيرة و لكي نضع عدد من المدافع المضادة للطيران عليها.

في اليوم التالي نظم عبد الرحمن عملية دخول مجموعة مسلحة إلى مرآب الوزارة التي يعمل بها، بعد تقييد الحراس و بالتعاون مع عدد من السائقين في المرآب قاموا بسرقة عدة عشرات من السيارات المختلفة من دفع رباعي و شاحنات و بيك آب، ثم غادروا المكان بعد ان أضرموا النار في باقي المركبات الحكومية.

هكذا اختار عبد الرحمن طريقه بشكل نهائي و انضم إلى صفوف المعارضة المسلحة و أصبح قائد كتيبة في اللواء المعارض الذي تم تأسيسه في منطقتهم.

في الشهور اللاحقة قامت كتيبة عبد الرحمن بعدد من العمليات القتالية منها إطلاق النار على السيارات العسكرية المارة على طرقات منطقتهم، كما أنهم

حاصروا القطع العسكرية و أصبحوا يخطفون العسكريين اثناء خروجهم من قطعهم العسكرية، البعض من العسكريين انضم إلى المعارضة، و البعض منهم حول إلى المحكمة الشرعية التي كان يرأسها شيخ الجامع والد زوجة عبد الرحمن، كانت تُطلب فدية مالية من عائلات العسكريين و في حال تسديدها كان يتم اطلاق سراح العسكريين، و في حال العكس كان في الغالب يتم إعدامهم.

سيطرت المجموعات المسلحة على كامل الدوائر الحكومية في الريف و أصبحت الدولة لا وجود لها في هذه المنطقة، بعد أن قويت المجموعات المسلحة قامت باقتحام العديد من القطعات العسكرية، و على الأغلب كان هذا يتم بتواطئ من جنود و ضباط من هذه القطعات، بعضهم تعاطف مع المتمردين لأسباب دينية و بعضهم تم شراء ذممهم بالمال الوفير.

عندما كان يتم اقتحام القطعات العسكرية كان يتم إعدام العديد من الجنود و الضباط على خلفية طائفية، حيث كانت المحكمة الشرعية هي التي تقرر الأحكام،

و من المثير أن كثيراً من الضباط باعوا قطعاتهم و جنودهم مقابل مبالغ مالية ضخمة، حيث ادخلوا المسلحين ليلاً إلى قطعاتهم و سمحوا للمعارضين ذبح الجنود و هم نيام، ومن الملفت أن بعضهم كان من الطوائف التي كان يعتبرها المسلحون كافرة و أحلوا ذبح جميع أفرادها.

بعد هذه الأحداث أصبحت كتيبة عبد الرحمن مسلحة بالمدافع و الدبابات و راجمات الصواريخ، أصبحت قوة عسكرية لا يستهان بها، كما و أصبح عبد الرحمن يعد أحد الأبطال في عيون المعارضة.

العودة إلى النهر العظيم

كان سامر منذ بداية الأحداث ينشط في الحراك المعادي للنظام بأشكال مختلفة، فقد كتب المقالات الناقمة و الناقدة و نشرها على الشبكة العنكبوتية ، و اشترك في المظاهرات و التي في أحدها تعرض للضرب المبرح من قبل أشخاص موالين للنظام ، كانت المعارضة تطلق على هؤلاء الأشخاص اسم الشبيحة رغم أن بعضهم كانوا أصحاب محلات تجارية في السوق الذي تمت فيه المظاهرة، ربما بسبب أنهم لم يكونوا يرغبون بأن يكون التظاهر في الشارع الذي يعتاشون بتجارتهم فيه.

جعلت الأراء المختلفة سامر يبتعد عن أصدقائه القدامى فلم يعد يراهم إلا صدفة، و بالمقابل نشأت دائرة جديدة من العلاقات لسامر و أهم حلقاتها كانت منى و راجي.

منى كانت طبيبة وناشطة حقوقية، أعلنت بصراحة مواقفها المعادية للنظام و اشتركت بأول تظاهرة نسائية معادية للنظام، و حيث أنها كانت مطلقة و لا إلتزامات عائلية لديها، و رغم أنها لم تكن على درجة تذكر من

الجمال فقد نشأ استلطاف بينها و بين سامر على خلفية توافق آرائهم السياسية بالدرجة الأولى، و ثم تطورت الأمور باتجاه علاقة أكثر حميمية، حيث أصبحت تأتي إلى منزل سامر و تطيل المكوث، بعدها أصبحت تمضي عدة ليالي من الأسبوع لديه.

صديقهما الثالث كان راجي، راجي هذا كان طالباً جامعياً فاشلاً أمضى ثماني سنوات وما زال لم ينهي تعليمه الجامعي، و بالمقابل فقد كان ناشطاً حقوقياً ذي باع كبير، حتى أنه سافر بمنحة من أحد المنظمات الداعمة للمجتمع المدني و حقوق الإنسان إلى إحدى دول أوروبا الشرقية و التي تأسس فيها مركز لإعداد كوادر للثورات الملونة و التي انتشرت بعدها في كل الدول التي لم تنل رضا السيد العالمي، طبعاً الدورات ظاهريا لم تكن تعلم آليات قلب الأنظمة أو زعزعتها من خلال إثارة القلاقل و الاضطرابات، بل كان ظاهرها تعلم وسائل الكفاح السلمي لتحقيق الديموقراطية و العدالة و حماية حقوق الإنسان.

راجي كانت تحوم حوله شائعات كثيرة أنه شاذ جنسياً و

على الأغلب أنه كان كذلك، حيث أنه لم يكن يخفي ميوله هذه كثيراً، و على العموم فالتقائه بسامر و منى كان بسبب التقاء آرائهم السياسية.
منذ بداية الأحداث تواصل راجي مع أحد المحطات الفضائية و أصبح يرسل لها مقاطع مسجلة بكمرة احترافية صغيرة أرسلت له من الخارج لهذه المهمة، كانت هذه المقاطع تظهر أشخاص يتظاهرون في أماكن مختلفة من العاصمة و ريفها، كما تظهر جنوداً و عناصر أمن و مدرعات و مركبات عسكرية، لم يكن من المهم جداً تسلسل الأحداث أو السياق، فالأفلام كان يتم مونتاجها في استديوهات هذه المحطة و كان يتم إضافة الأصوات و العبارات المطلوبة و التي تخدم توجه هذه المحطة.
حصل راجي على مبالغ مالية ليست بالقليلة لقاء خدماته، كانت المهام مع هذا تزداد، و كانت أساليب العمل تتطور بدورها.
شكل الثلاثة فريق عمل مختص في تأمين المشاهد المطلوبة و تنظيم الفعاليات التي كان يطلب تنفيذها، كان يتم توزيع مبالغ مالية زهيدة على عدد من الشبان و ثم يتم

أخذهم إلى أحد الحارات الفرعية و يتم تصويرهم مع اللافتات المطلوبة، في الأيام التالية كان يشاهد الثلاثة برضى المشاهد التي صوروها مع إضافة بعض المؤثرات و بعض المونتاج تعرض بلا توقف على المحطة الفضائية المشغلة لهم.

في مراحل لاحقة أصبحت منى تهتم أكثر فأكثر بموضوع معالجة جرحى الاشتباكات التي كانت تجري في أنحاء مختلفة من ريف العاصمة، فأصبحت تتغيب لأيام عديدة في المشافي الميدانية السرية و التي أنشأتها المعارضة في عدد من مناطق ريف العاصمة.

ترافقت هذه الفترة مع تشكيل الألوية و الكتائب المقاتلة التابعة للمعارضة في ريف العاصمة، و بدأت الاشتباكات تزداد بين المعارضة و القوات الحكومية، و تحولت إلى حرب حقيقية استخدم فيها الطرفان مختلف أنواع الأسلحة.

أصبح تنقل منى بين الريف و المدينة محفوفاً بالمخاطر، كما و أصبح أسمها من المطلوبين للقوات الحكومية فاستقرت بشكل نهائي في أحد المشافي الميدانية في ريف العاصمة، بدأ سامر يحس بالوحشة و الغربة المتزايدة في

تفاصيل حياته، فمنى أصبحت بعيدة و لا يتمكن من الاتصال بها إلا نادراً جداً، كما أن علاقته براجي بدأت تأخذ منحى جديداً بعد غياب منى، إذ بدأ يحس سامر بشيء غير طبيعي في علاقة راجي به، سواء من حيث لمس راجي ليده و امساكها مطولا، و محاولات غريبة منه للاحتكاك به كما أنه أخذ يتقصد المكوث عنده في فترات الليل المتأخر، فبدأ سامر يتحاشى راجي و يختلق الأعذار لكي لا يراه.

في هذه الأثناء كان سامر يدمج في شخصيته المعارضة للحكم بعدين مستقلين تماما، فهو كان معارضاً ليبراليا يعارض الحكم لأنه غير ديمقراطي و استبدادي ، و من جهة أخرى كان البعد الأثني لقوميته غير العربية يحرك المشاعر المعارضة في داخله.

حاول سامر التواصل مع المعارضين في المنطقة التي تسكنها أغلبية من قوميته، و هي منطقة في أقصى الشمال الشرقي للبلاد، إلا أنه تفاجئ أنه لا يوجد روابط كثيرة تجمع بين آرائه و آراء بني قوميته ، بل و وجد القوى الأساسية في منطقته و قد تحالفت مع القوات الحكومية

في وجه أعداء مشتركين للطرفين.

و تفصيل ذلك أن بعض القبائل و العشائر العربية الموجودة في المنطقة قد تم اختراقها من قبل عدد من التنظيمات الدينية المتشددة، و هذه التنظيمات حاولت أن تبسط سيطرتها على مناطق تواجد الأثنية الثانية في البلاد ، و بما أن هذه الأثنية و رغم وجود خلافات بينها و بين السلطة الحاكمة وجدت في المتطرفين الدينيين خطراً أكبر كما و وجدت في أطماع الجار الشمالي الخطر التاريخي الحقيقي على وجودها ، فتحالفت مع القوات الحكومية و بدلاً من أن يتم الصدام بين الطرفين تعاونا في وجه التنظيمات الدينية المتطرفة حيث سلحت الحكومة المواطنين من هذه الأثنية بالسلاح الخفيف و المتوسط و قامت بالتغطية النارية لتحركاتهم بالمدفعية و الطائرات.

عندما وجد سامر الوضع هكذا في الشمال الشرقي، تواصل مع عدد من أصدقائه الليبراليين في مدينته التي آتى منها على النهر العظيم، عندها وجد تقاربا أكثر معهم فقرر السفر إلى مدينته، سافر دون أن يعلم أحداً في العاصمة، فمن يعنيه لم يكن يستطيع إعلامه، و الآخرين

فمنهم من كان يريد الهرب منهم و منهم من أصبح البعد و الجفاء بسبب الآراء السياسية بينه و بينهم مستحكماً.

الصيف ليس بارداً في الشمال

خلال السنة الأولى من الأزمة بقيت عاصمة الشمال في منأى بدرجة كبيرة عن تداعيات الأزمة، فأهل المدينة من الصناعيين و التجار و الحرفيين الموسورين، و لم يكن من السهل اقناعهم بالمشاركة في أعمال الفوضى أو الشغب، أن السنوات العشر الماضية كانت سنوات ازدهار و رخاء في المدينة فقد جلب الرئيس الجديد الانفتاح فتطورت الأعمال و ازدهرت، بينما الأرياف المحيطة بالمدينة فعلى العكس انتشرت فيها جماعات المعارضة و سيطرت على الكثير من المناطق متلقية الدعم المباشر عبر الحدود الشمالية من جيران الشمال و مستغلة الدعاية الدينية الغزيرة عبر مئات وسائل الإعلام العربية و الخليجية.

في الجار الشمالي كانت تحكم حكومة ذات توجه ديني تحاول إحياء أمجاد إمبراطوريتها الغابرة و التي سيطرت باسم الدين و جثمت أكثر من أربعمئة سنة على صدر الشرق كله، استغلت هذه الحكومة سياسة الانفتاح في أقدم بلاد الله في السنوات السابقة للأزمة، فغلغلت

استخباراتها و نفوذها و شركاتها في شمال أقدم بلاد اللّه.
مع ذلك في الفترة الأولى كان خليل مرتاحاً في سكنه و عمله في الشمال ، بحث عن منزل ليسكن فيه، استعان بصديقه حسن فاقترح عليه حسن أن يسكن لدى عائلته، فهم لديهم بيت عربي به عدة غرف إضافية يقومون بتأجيرها للطلاب أو الموظفين القادمين من الريف، و رغم أن الحي الذي كانت تسكن به عائلة حسن كان حياً شعبياً في الجنوب الغربي من المدينة إلا أن خليل قرر أن يستأجر غرفة لدى عائلة حسن لما لمسه من طيبة أهل حسن.
شعر خليل أنه ابن في العائلة و ليس مستأجراً، في الصباح كانوا يوقظونه ليشرب القهوة معهم قبل أن يذهب إلى عمله و لا يسمحون له أن يخرج قبل أن يتشارك طعام الفطور البسيط مع العائلة و الذي كان على الأغلب جبن و لبنة من عمل يدي الخالة أم حسن و بعض الزيتون و المربيات من إنتاج أرض الحج أبو حسن ، كان لدى حسن عدة أخوة و اخوات أصغر منه، بعضهم في الجامعات و البعض في مرحلة التعليم الثانوي، و كان والده حريصاً على أن يتموا جميعهم تعليمهم الجامعي، و كان يستعين

براتبه التقاعدي من الجيش و راتب حسن و منتجاته الزراعية البسيطة من أرضه الصغيرة في قريته و آجار ثلاثة غرف من بيته المتواضع ،كل ذلك كان مخصصاً لكي يتم أولاده جميعاً تعليمهم الجامعي.

كان خليل و الحالة هكذا يجلب معه كل فترة و هو عائد من عمله بعض المواد الغذائية و بالأخص اللحوم و الفواكه، و يطلب من الخالة أم حسن أن تجهز غداء للجميع، حيث أن خليل قد باع سيارته و أرسل الجزء الأكبر من المال مع زوجته إلى بلدها لتستعين بها على مصاريف الولادة الوشيكة، و ترك معه جزءاً يسيراً وضعه فوق بعض مدخراته البسيطة، هذا بالإضافة إلى راتبه و مكافآت التقارير الإعلامية الميدانية التي كان يعدها بالإضافة إلى أنه قد وكل أحد أقاربه لكي يقوم بتأجير شقته الصغيرة في العاصمة و يرسل له الآجار شهرياً، كل ذلك اتاح له أن يساعد العائلة قدر المستطاع و خاصة كبادرة رد جميل حيث لم يرضى العم أبو حسن أن يأخذ منه سوى نصف الآجار المعتاد للغرفة، بل أنه رفض في البداية أن يأخذ أي شيء فصديق أبنه حسن هو ضيف و

ليس مستأجر.

أمضى خليل الكثير من الأمسيات و هو يلعب الطاولة مع العم أبو حسن، أثناء ذلك كانا يتبادلان الأحاديث في الشؤون السياسية الراهنة ويناقشون أحداث السنين السابقة، حيث كان العم أبو حسن دائم الترحم على الرئيس السابق و الذي برأيه لم يكن ليدع فرصة للمتمردين بل كان سحقهم مباشرة، بينما الرئيس الراهن فهو برأيه رحيم القلب أكثر مما يتطلب.

لم يكن خليل يرى حسن كثيراَ حيث نتيجة الأوضاع في البلاد أصبحت إجازات العاملين في الأمن و الجيش قليلة جداً، كانت خدمة حسن على أحد الحواجز في الشمال حيث كانت الاشتباكات مستمرة و كانت الخالة ام حسن دائمة الدعاء أن يعود لها سالماً.

و هكذا كل أسبوعين أو عشرة أيام كان يُفتح الباب و يدخل حسن بلباسه الميداني الكامل مع رشاشه و جعب الرصاص و المسدس و القنابل اليدوية المتدلية من خصره، كل ذلك كان لا يتفق مع وجهه الطفولي البريء و الذي بدأ يختفي شيئاً فشيئاً خلف لحية فاتحة تركها مسترسلة

على عادة المقاتلين في تلك الفترة.
كان حسن يحدث خليل عن الأوضاع على جبهات القتال باقتضاب حيث كانت الأوضاع صعبة جداً ، كان السلاح يتدفق إلى المعارضين المسلحين عبر حدود الجار الشمالي و التي فتحها على مصراعيها كان الدعم المادي يأتي من دول النفط، كانوا يشترون السلاح من دول أوروبا الشرقية و يرسلونه إلى الجار الشمالي، كانت هذه التجارة مربحة جداً لرؤساء البلديات و المتنفذين و رجال الأمن و الدولة في دولة الجوار الشمالي، ملايين بل مليارات الدولارات قبضت كعمولات لتمرير السلاح و تسليمه للمتمردين.
لم يقف الأمر عند الامداد بالسلاح حصل المتمردون على أحدث معدات الاتصال و الأدوية و المعدات الأخرى، حتى أن سيارات الإسعاف من دولة الجار الشمالي كانت تدخل عبر الحدود لكي تسعف جرحى المعارضة المسلحة.
تكونت غرفة عمليات على الحدود ضمت ضباط استخبارات من عشرات الدول الغربية و العربية، كانوا يوجهون الجماعات المسلحة و يزودونهم بالمعلومات اللازمة مباشرة حيث كانت الأقمار الصناعية ترسل الصور

المباشرة لتوضع القوات الحكومية و تحركاتها، مما كان يتيح للمتمردين القدرة على التحرك و مهاجمة القطعات المنعزلة و عرقلة أي تحرك لمؤازرتها.

عدة سفن تشويش و تنصت كانت تجوب البحر قبالة سواحل البلاد، هذه السفن كانت مزودة بأحدث معدات التنصت حيث كان باستطاعتها التنصت على جميع الاتصالات بأنواعها الخليوية و الأرضية، العسكرية و المدنية.

خمس و ثمانون دولة حول العالم و على رأسها السيد العالمي و كل دول الغرب الصناعي المتطور و كل دول النفط العربي الغنية اجتمعت و أعلنت أن هذا النظام الحاكم في أقدم بلاد الله سيسقط و قريبا جداً، و هم لن يسمحوا له بأن يستمر و لو كلفهم الأمر صرف عشرات بل و مئات مليارات الدولارات، و هكذا تعهدوا أن يمولوا و يسلحوا المعارضين .

أصبحت عشرات المواقع العسكرية الحكومية محاصرة في شمال البلاد، كما و في المرحلة التالية ركز المتمردون و بتوجيهات من غرفة العمليات جهودهم على تدمير وسائل

الدفاع الجوي و المطارات العسكرية.
عند تطرق حديثهم لهذه النقطة كان حسن ينفجر دائماً :
ـ إذا هم كما يقولون يقاتلون من أجل الحرية، من أجل بناء الدولة القوية الحديثة، و لا يقومون سوى برد هجمات القوات الحكومية الظالمة عليهم، لماذا يركزون هجماتهم على الرادارات و منصات إطلاق الصواريخ المضادة للطائرات، هل يعقل أنهم يحطمون نظام الدفاع الجوي للبلاد و الذي استغرق بناءه عشرات السنوات وصرف عليه من دم و مال الشعب و هو موجه ضد اعتداء الخارج حصراً و ليس له أي تأثير في مجريات أحداث المعارك اليومية على الأرض؟
ـ هم ينفذون ما يأمرون به، و اعتقد أن هذه هي توجيهات خارجية و قد تكون مقدمة لضربة جوية تعد للبلاد.
ـ هذا ما أخشاه، لكننا احتطنا لكل شيء، فالقوات موزعة بشكل حتى لو تعرضنا لضربات جوية مكثفة سنخسر بعض قواتنا و سيسقط العديد من الشهداء، إلا أنهم لن يتمكنوا من كسر إرادتنا و لن يتمكنوا من تغيير الوضع على الأرض، فدولتنا ليست ضعيفة و القوات

المقاتلة الأساسية لم تزج بعد في المعارك، الشيء الوحيد الذي نخشاه و نعمل على مواجهته هو الخيانات في الداخل.
كان خليل يحس براحة بعد أحاديثه مع حسن ، كما و لو أن بعض هذا التفاؤل و الثقة المطلقة بالنصر كان ينتقل إليه، فيلطف بعض السوداوية من المشهد المحيط بعاصمة الشمال.

الاختراق

كانت إستراتيجية الدولة مبنية على الدفاع عن عاصمة الشمال بشكل أساسي من ثلاثة محاور، الشمال و هو الأكثر خطورة، الغرب حيث كذلك كانت محافظة بأكملها تشهد اضطرابات شديدة، و من الشرق حيث السهول المفتوحة باتجاه النهر العظيم، و لكن الاختراق الغير متوقع جاء من الجنوب.

تسللت مجموعات عبر السهول الشرقية خارج المدينة و التفت إلى الجنوب و سيطرت على عدد من الأحياء قاطعة بذلك جميع طرق الإمداد إلى عاصمة الشمال، و وضعتها في حصار شامل و قطعت الطريق الدولي الرابط بين العاصمتين والذي لطالما اعتبر الشريان الحيوي للبلاد.

لم يكن تحركها اعتباطياً، فقد دارت إشاعات كثيرة حول بيع جنوب المدينة، حيث تركزت الشبهات على رئيس فرع الأمن في القسم الجنوبي للمدينة، هذا الضابط كان من محافظة الجنوب المضطربة و لعل هذا الشيء ركز الشائعات حوله، و منطقياً فهو كان المسؤول عن أمن هذه

المنطقة و مؤكد أنه كان لديه تقارير وافية عن بدء تسلل العناصر المسلحة إلى منطقته، كما و كان يعرف بوجود الخلايا النائمة و التي تنتظر إشارة ساعة الصفر لتنقض على القوات الحكومية، في المحصلة سقطت الأحياء الجنوبية بيد المسلحين، و حوصرت عاصمة الشمال، أما ضابط الأمن فقد شوهد بعد فترة في أحد الفنادق الفخمة في دولة الجار الشمالي.

في هذه الأثناء عاشت المدينة حصاراً حقيقياً و أصبحت تعاني الندرة في كل شيء و أصبحت جميع أحيائها معرضة للقصف بواسطة القذائف و الصواريخ.

كان خليل في هذه الأثناء متواجداً في المركز الإذاعي و الموجود على تلة مرتفعة نسبياً في وسط المدينة و يتوضع في أعلاها هوائيات الإرسال الخاصة بالبث، في صبيحة أحد الأيام شاهد من نافذة مكتبه هجوم القوات المعارضة على المركز الإذاعي، مئات المسلحين حاولوا صعود التل من جميع الجهات، كانت حامية المركز في وضع مشرف على تحركهم، عدة موجات من الهجوم ارتدت عن المركز تاركة عشرات الجثث على جنبات التل، مساء استمرت

الهجمات كذلك، فكان الرصاص الخطاط يخترق الأجواء و أصوات المدفعية التي تقصف المناطق المحيطة بتلة الإذاعة و التي كان ينطلق منها المسلحون تشكل هالة من الأصوات المخيفة.

كان المشهد سريالياً و يُشعر خليل بأنه موجود في بعد آخر خارج مكانه و زمانه المعتاد.

استمر الهجوم على تلة الإذاعة ثلاثة أيام وبعد أن تكبد المسلحون مئات القتلى قرروا الانسحاب إلى الأحياء القديمة للمدينة و التمركز فيها، و بالتالي صمدت حامية تلة الإذاعة، و فُك الحصار عن العاملين بها.

قرر خليل بعدها أن يكثف جولاته الميدانية فطلب من مدير المركز الإذاعي أن يخصص له سيارة مع سائق و مصور لكي يغطي الأخبار الميدانية في جميع أنحاء المدينة.

في البداية تردد رئيس المركز و لكن عندما أعلمه خليل أنه سيقوم بالعمل على مسؤوليته الخاصة و أنه و فريقه مستعدون لتحمل المخاطر و قدموا كتابا خطياً بذلك، وافق مدير المركز كما و طلب من الضابط المسؤول عن حماية المركز أن يوفر عدد من الجنود لكي يؤمنوا حماية

نسبية لفريق العمل أثناء تنقلاته.

في هذه الفترة نقل خليل التقارير الإخبارية المصورة من خطوط الاشتباك، و من الأحياء المحاصرة، كانت القنوات الفضائية المشتركة في الحرب الإعلامية ضد بلاده تنشر الأخبار الملفقة عن سقوط أحياء محددة و مواقع مهمة في عاصمة الشمال، و ذلك بهدف زعزعة الروح المعنوية للمدافعين المحاصرين، فكان خليل و فريقه يبادر إلى هذه المواقع و الأحياء و ينقل التقارير المباشرة من هذه الأحياء، كانت هذه التقارير شديدة التأثير فمن جهة كانت ترفع الروح المعنوية للمدافعين و من جهة أخرى كانت تحرج المحطات المعادية و تهبط بمصداقيتها إلى الحضيض.

لقد كان الإعلام الحكومي قبل هذه الأزمة يعتبر على نطاق واسع إعلام مسيس و غير ذي مصداقية، ساهمت الجهود التي بذلها خليل و فريقه و عدد من المراسلين الميدانيين الآخرين المنتشرين على مساحة البلاد في تغيير النظرة الشعبية اتجاه الإعلام الحكومي، لكن الضريبة كانت غالية، العشرات من الصحفيين و المراسلين

الميدانين أصيبوا أو حتى قتلوا أثناء قيامهم بتغطية سير المعارك، كما و تعرضوا للخطر أثناء تنقلاتهم بسبب القنابل العشوائية أو التفجيرات التي استهدفت الكثير من مراكز تجمع المواطنين و الأبنية الحكومية، كما أن بعض المراسلين تم اغتيالهم و بعضهم خطف و عذب ثم قتل.
كثيرٌ من الأحداث انطبعت في ذاكرة خليل إلى الأبد عن تلك الأيام، و منها حديث لن يتمكن من نسيانه أبداً، بعد أحد التفجيرات انتقل خليل و فريقه إلى المشفى المركزي للمدينة لمتابعة حالة الجرحى و المصابين و إعداد تقرير عن ضحايا و ملابسات الانفجار.
كان المشفى مكتظاً بالمصابين المدنيين و العسكريين حيث لم تكن خطوط التماس تبعد سوى عدة كيلومترات عن المشفى، بعد اجراء عدد من المقابلات مع الجرحى الذين كان بإمكانهم الحديث و تصوير عدد من المشاهد للإصابات، خرج خليل إلى باحة المشفى الداخلية ليدخن سيكارة علها تريحه من ضغط الموقف الناتج عن مشاهدة صور العذاب و الآلام البشرية، صدف وقوفه في الباحة وجود أحد الأطباء و الذي شاهده خليل منذ قليل يقوم

بإجراء عملية جراحية في ممر المشفى مباشرة، فدار حديث بينهما، سأله الطبيب أولاً:

ـ هل أنت مراسل القناة الإخبارية الحكومية؟

ـ نعم، لكنني أظن أنك لا تشاهدها؟

ـ الحقيقة أنني لا اتابع التلفاز منذ مدة طويلة، نعمل في المشفى في بعض الأيام عشرين ساعة متواصلة، ننام و نأكل في المشفى، لم أذهب إلى بيتي منذ أسبوعين، ننام فقط عندما يصبح الوقوف على القدمين مستحيلاً...

ـ من الصعب تحمل صورة العذاب الإنساني بهذا الشكل الفظيع لا سيما مع وجود نقص كبير في امكاناتكم لمساعدة المصابين...

ـ لقد تعودنا على مشاهد العذاب و الجراحات و لعلها لم تعد تحرك فينا نفس الأحاسيس التي كانت تحركها في البداية، فقط نحس بحرقة عندما لا نستطيع مساعدة أحد المصابين و يكون ذلك في يدنا فقط تنقصنا بعض الامكانات...

ـ و لكن هناك شيء أثر فيك أكثر من غيره ، ألم يحدث معك موقف ما علق في ذاكرتك؟

ـ بلا... بعض المواقف لا أنساها ، منذ أسبوع جلب جنديان زميلاً لهما ، كانت جراحه مميتة ، و في الحقيقة كان ميتاً عندما وصلوا ، قمت بما علي فعله نزعت بدلته العسكرية و حاولت إجراء انعاش له، سواء بإعطائه حقنة، ثم بالتدليك و الصدمات الكهربائية، كان ميتاً و لم تنفع حهودي لإسعافه، لاحظت وجود رغيف خبز يابس سقط من داخل سترته، كان ناقصاً حوالي الربع، سألت أحد الجنديين اللذين جلباه، لماذا كان يضع زميله الشهيد خبزاً يابساً داخل سترته؟ أجابني أن فصيلتهم محاصرة في أحد الأحياء في المدينة القديمة منذ أسبوع ولا يوجد لديهم أي طعام سوى بعض ربطات الخبز اليابس و القليل من الماء ، و كل جندي يضع رغيف خبز على جسده و عندما يجوع يقطع قليلاً منه و ذلك لكي لا يتلهى عن مراقبة تحركات الأعداء، سألته هل فككتم الحصار ؟ قال لا فقط نتسلل كل فترة لنأخذ أحد المصابين إلى المشفى و نجلب الذخيرة لزملائنا المقاتلين، الذين يذهبون قد يعودون و قد يتم قنصهم أثناء ذهابهم أو قدومهم.

ـ و ما سبب أن هذا الموقف قد علق في ذهنك؟

ـ السبب ما حدث معي في اليوم التالي، جلب مجموعة من رجال الأمن أحد جرحى المعارضين المسلحين، كان كذلك مصاباً بإصابات بليغة، و لعلهم كانوا يريدونه حياً ليعرفوا بعض المعلومات منه، فطلبوا مني أن أبذل جهدي في علاجه، عندما عاينت الجروح عرفت أنها قاتلة و فعلاً بعد حوالي نصف ساعة نفر الدم من فم المصاب و أنفه و مات، عندما كنت أنزع ثيابه سقط منه شيء ما، تفحصته فإذا به ملابس نسائية داخلية فاضحة، فسألت أحد رجال الأمن أيعقل أنه قام بسرقة ملابس داخلية نسائية؟ فأجابني أن أحد شيوخ الجماعات المسلحة قد أفتى للمقاتلين أنه يجوز لهم أن يأخذوا كهدية إلى الحوريات في الجنة ما يشتهونه من الملابس الداخلية لكي تقوم الحوريات بإرتدائه لهم.

سكت الاثنان لفترة ، لم يكن يُرى في العتمة خلالها سوى ضوئي السيكارتين المشتعلتين، حيث أن الوقت قد أصبح متأخراً و مولدات الكهرباء كانت تكفي فقط لتنير الأقسام الداخلية للمشفى.

ثم تابع الطبيب كلامه:

-أتعرف لقد أدهشني وجه الجندي الأخر، لقد كان يتكلم عن وضع الحصار الذين هم فيه و الجوع و الموت الذي يتعرضون له بهدوء و سكينة، كما لو أنه يتكلم عن أناس آخرين، موجودين في مكان أخر تماماً و لا يعنوه بشيء، أستغرب كيف يقاتلون نصف العالم و هم ليسوا موعودين بشيء سوى الجوع و قلة الذخيرة و الامكانات ثم الموت، و قد لا يتم إسعافهم أبداً، كما و قد لا يدفنون أبداً، و مع ذاك يقاتلون، يعلمون أن المؤازرة على الأغلب لن تصل، و أن من يقاتلونهم وحوش إذا هم أمسكوهم أحياء فقد يتمنوا ساعتها أن لا يكونوا قد ولدوا، و مع ذلك يقاتلون و ببطولة، أما من جهة أخرة فمن يواجهونهم يقاتلون فقط للقاء حورياتهم.

الهواء الأصفر

كان في أقدم بلاد اللّه برنامج تسلح سري، عندما امتلك عدو البلاد السلاح النووي، وضعت القيادة في أقدم بلاد اللّه خطة لإنتاج سلاح ردع مناسب، لم يكن من الممكن إنتاج أو الحصول على سلاح نووي، فقامت القيادة بوضع برنامج لإنتاج السلاح الكيميائي.

بعد عشرين سنة من العمل أصبح لدى القوات المسلحة في أقدم بلاد اللّه مخزون كبير من الأسلحة الكيميائية المتنوعة و الذي عد أحد أكبر المخزونات في العالم.

رغم الفعالية المنخفضة نسبيا للسلاح الكيميائي مقارنة بالسلاح النووي فقد اعتبرت القيادة السياسية أنها بذلك ستضمن نوعاً من التوازن الإستراتيجي أو توازن الرعب مع العدو، كما أنها اعتبرت ذلك ورقة للتفاوض مستقبلاً مع العدو لاستعادة الأراضي التي يحتلها.

وضعت المعارضة المسلحة هذا الأمر نصب عينيها و منذ الأيام الأولى لتحركاتها بدأت تدّعي أن القوات الحكومية تستخدم السلاح الكيميائي لإجراء عمليات إبادة جماعية

لمعارضيها.

تحركت الدول الغربية و على رأسها السيد العالمي و أعلنت أن استخدام السلاح الكيميائي خط أحمر و في حال استخدم سيكون ذلك مبرراً كافياً لدول الغرب بشن الحرب على أقدم بلاد الله.

كان هذا تماماً ما كانت المعارضة المسلحة تريد سماعه، طالما أن استخدام السلاح الكيميائي سيعد مبرراً مقبولاً أمام شعوب الدول الغربية للتدخل العسكري في أقدم بلاد الله، و التي كانت مترددة جداً في دعم حكوماتها لإرسال أبنائهم للقتال و ربما الموت في بلاد بعيدة، كان يتوجب اقناع الرأي العام أن حدثاً جليلاً يحدث و شعب كامل تحت خطر الإبادة.

كان من المؤكد أن القوات الحكومية لن تستخدم السلاح الكيميائي و ذلك لأسباب عديدة ، فمن جهة هي لم تكن بحاجة له مع وجود قوات الطيران و المدفعية و المدرعات لديها مما كان يضمن لها التفوق الناري، هذا من جهة ثم أن طبيعة المعارك و انتشارها بين المناطق المأهولة بالسكان و تداخل المناطق الموالية و المعارضة

للحكومة كان يجعل إمكانية استخدام هذه الأسلحة بفاعلية مستحيلاً.

كان توزيع الموالين و المعارضين للحكومة شديد التعقيد ففي بعض العائلات كان بعض الأخوة مع القوات الحكومية و أخرون يقاتلون في قوات المعارضة، هذه الأزمة شرخت البلاد و لكن حدود الشرخ لم تكن في جغرافيا الأرض بل كانت في جغرافيا القلوب.

و لكن السبب الأساسي الذي كان يمنع القوات الحكومية من استخدام هذا السلاح و لو على أضيق نطاق و حتى في حالات خاصة جداً ، هو عدم إعطاء المبرر للدول الغربية بشن قصف جوي أو أي شكل من أشكال العدوان التدميري على أقدم بلاد الله.

هنا كانت فرصة لم تشئ المعارضة المسلحة تفويتها ، بدأت الأمور بدعاية مكثفة أن القوات الحكومية تستعد لاستخدام أسلحة كيميائية ، فظهرت التقارير على العديد من المحطات الفضائية و التي تروي أنباء مؤكدة عن تحريك القوات النظامية أسلحة كيميائية أو وضعها على جبهات القتال مع المعارضة ، كما و ظهرت تقارير تؤكد

أن الحكومة توزع واقيات الغاز على الجنود التابعين لها.

ثم جاء دور المرحلة الثانية و هو اقناع العالم أن النظام استخدم السلاح الكيميائي، تم شراء مكونات أسلحة كيميائية شبيهة بالتي توجد لدى القوات الحكومية ثم تم تركيبها في مختبر سري في دولة الجار الشمالي، ثم نقلت عبر الحدود إلى أحد الفصائل المرتبطة مع استخبارات الجار الشمالي و التي عرفت بانضباطها و تنفيذ الأوامر الموكلة إليها بدون نقاش.

أُمرت هذه المجموعات أن توزع الأسلحة الكيميائية على عناصرها في عدد من المحافظات بشكل سري، و انتظار إشارة ساعة الصفر من غرفة العمليات.

ترافقت هذه المرحلة مع المرحلة السابقة لحصار عاصمة الشمال، في هذه المرحلة زار سامر المدينة، لقد كانت الطرقات إلى مدن النهر العظيم تمر تقليدياً عبر عاصمة الشمال، و حيث أنها كانت كذلك أكثر أمانا في تلك الفترة ، أختار سامر أن يمر بعاصمة الشمال في طريقه إلى مدينته.

اتصل بخليل و أعلمه أنه في المدينة، سر خليل بهذا الخبر،

فرغم الاختلاف في الآراء السياسية، فما بينهما كان أكبر من السياسة، التقيا، سارا في الطرقات و هما يمزحان و يضحكان، يتذكران الأصدقاء و يتذكران الأيام الخوالي.

أراد خليل أن يعزم سامر إلى منزل عائلة أبو حسن إلا أن سامر أعتذر حيث أن وقته كان ضيقاً فحافلته ستنطلق الساعة الواحدة ، فقرر خليل أن يعزم سامر إلى مطعم في المدينة القديمة كان مشهوراً بالكباب المشوي بطريقة مميزة، بعد أن تناولا وجبة كباب لذيذ، دار بينهما الحديث:

ـ خليل هل تتذكر زميلاً لك اسمه دامر؟ أومأ خليل برأسه و هو يشف شفة شاي من كأسه.

ـ أنت تعرف أن تامر قد تزوج منذ عدد من السنوات من سيدة أوروبية و انتقل للحياة في أوروبا.

ـ قصدت أن تقول أنه تزوج أوروبية بعمر أمه لكي يحصل على جنسية أوروبية.. صحح له خليل.

ـ على كلا، ليس هذا هو موضوع الحديث، أنت تعلم أنه كان يدرس الإخراج و الأن أصبح مخرجاً تلفزيونياً يعمل

لصالح أحد المحطات الأوروبية.

ـ أنا أعرف أنه كان يدرس الصحافة في نفس الجامعة التي درست بها ، إلا أنه تم فصله لعدم التزامه بالدروس و لتجاوزه لسنوات الرسوب المسموحة... أما أنه درس الإخراج فهذه لم أكن أعرفها.

ـ على كلاً .. لقد تحدثت معه مؤخراً عبر الأنترنت و طلب مني إذا التقيتك أو تواصلت معك أن أعطيك رقم هاتفه و بريده الإلكتروني حيث أنه يرغب في التعاون معك في إنتاج أفلام وثائقية عن الأزمة في البلاد.

ـ و هل سيخرج هذه الأفلام الوثائقية و هو موجود في أوروبا؟

ـ لا .. فهو ينتقل حالياً بين أوروبا و دولة الجار الشمالي، و يجهز للانتقال بفريق عمله إلى داخل أراضي البلاد.

ـ إذا هو يعمل بالتنسيق مع المعارضة المسلحة؟

ـ لا هو من أنصار الحراك السلمي المعارض ، فهو لا يؤمن بالعنف، و من هنا فهو يرغب بتوثيق جرائم النظام لكي يزيد من الضغط و العزلة على النظام مما يسرع في رحيله و يخفف من ألام و تضحيات الشعب.

ـ و هل سيوثق كذلك جرائم المعارضة المسلحة و خاصة بشقها الديني المتطرف؟

-أفهم خليل أن الأمر أخطر مما تتوقع.. النظام المجرم يستعد لإرتكاب جريمة إبادة جماعية، لقد أدرك أنه سيخسر الحرب و يسعى لإقامة دويلة طائفية و لذلك فهو يريد ان يقوم بعملية تطهير عرقي.

- و لكنني أرى ان النظام ما زال قوياً و الدليل أنه لم يخسر و لا مركز محافظة واحدة من المحافظات العديدة في البلاد، كما أن المعارضة تعلن عن انتصاراتها كما لو أنها نصر في حرب عالمية، بينما هي في الغالب لا تتعدى كونها استيلاء على بعض المخافر البعيدة أو القطع العسكرية المعزولة، إن كل المناطق التي تسيطر عليها المعارضة هي مناطق ريفية و كلها في مرمى نيران القوات الحكومية.

- صدقني إن الأمر مختلف عما يذيعونه .. جيش النظام منهك و هو أشبه بمظهر لا جوهر له، و الناس في أغلب المحافظات لم يعودوا يطيقون بقائه.. لقد أكد الثوار حصول حالات عديدة من الاختناق للمقاتلين على جبهات

القتال مؤخراً.. سواء هنا حول عاصمة الشمال أو حول العاصمة في الجنوب.

-سامر هل تعرف ما هو مخزون جيش البلاد من الغازات؟

- ماذا تقصد؟

-إن أغلب الترسانة الكيميائية في البلاد هي من غازات الأعصاب، مثل غاز الزارين و غيره، هذه الغازات لا طعم و لا لون و لا رائحة لها ، هذه الغازات تؤثر من خلال تلامسها مع الجلد و ليس من خلال التنفس، فهي بالتالي لا تسبب أي حالة اختناق، مجرد وصول جزء من الميلغرام إلى جلد الإنسان يؤدي إلى الموت خلال خمسة عشر ثانية، تتشنج كافة الأعصاب في الجسد دفعة واحدة، يأتي الموت بسبب تشنج الأعصاب المغذية للقلب و الدماغ دفعة واحدة، إذا كيف يمكن للمعارضة أن تشتم رائحة غازات كهذه؟ ثم كيف يمكن للقوات الحكومية أن تستخدمها؟ إن استخدامها يتطلب أن يرتدي كافة عناصر الجيش بدلات واقية من الأسلحة الكيميائية و لا يكفي ارتداء كمامات واقية، هذا الإجراء يجب أن يشمل دائرة قطرها عشرات الكيلومترات حول منطقة الاستخدام فهل تظن أن هكذا

أمر يمكن أن يحدث دون أن يتم ملاحظته؟

اضطرب سامر قليلاً... ثم تمالك نفسه:

- على كلاً سأترك لك أرقام دامر فقد تتواصلون و تستفيدون من بعضكما، فأنتما كلاكما تعملان في مجال الإعلام و يهمكما نقل الحقيقة.

أوصل خليل صديقه إلى مركز الحافلات، و عندما انطلقت الحافلة لوح لسامر بيده، ثم دار و سار ببطء وعندما وصل إلى أول حاوية قمامة قام برمي الورقة التي كتبها سامر بما فيها من أرقام و عناوين.

خان الشهد

تذكر خليل اللقاء الذي جمعه بسامر في الصباح الباكر في أحد الأيام بعد عدة أشهر من لقائهما.

في هذا اليوم كان خليل قد قرر أن ينام في المركز الإعلامي، إذ عمل لوقتٍ متأخر جداً من الليل و لم يبقى للصباح سوى سويعات معدودة، فقرر أن لا يعود إلى منزل العم أبو حسن في حي خان الشهد.

ايقظه صوت الهاتف في الساعة السابعة كان المتصل العم أبو حسن:

-مصيبة يا خليل مصيبة...أولاد الحرام لقد ضربوا قذيفة على الحي استهدفت ثكنة صغيرة موجودة في الحي.. هناك رائحة نفاذة كالنشادر أو شيء مشابه، العديد من الجيران أصيبوا بحالات اختناق كما أن أغلب الجنود في الثكنة قد استشهدوا...

أقفل خليل الخط بعد أن وعد العم أبو حسن أن يأتي فوراً ، كان أفراد فريقه جميعاً معه في المركز خلال دقائق انطلقوا في سيارة المركز الإعلامي و تبعتهم سيارة بها

أربعة جنود مكلفين بحراستهم.
عند وصولهم كانت حالة الكارثة بادية، عدة سيارات إسعاف صادفوها في طريقهم و هي تنطلق باتجاه المشفى الوطني بأقصى سرعة تستطيعها، كان الأهالي في الشوارع بعضهم يضع قطع قماش قطني مبلول على وجوههم، و بعضهم لم يعد يهمه حتى هذا الإجراء الوقائي البسيط.
قبل الثكنة أوقف الجنود السيارتين و بعد التأكد من هوياتهم سمح لهم بالوصول إلى المنطقة التي تعرضت للهجوم.
في البداية صور الفريق عدداً من شهادات الأهالي، و التي كانت في مجملها متطابقة، حيث سُمع صوت انفجار كبير في الثكنة، ثم انتشرت رائحة نفاذة في الجوار، و بدأ السكان القاطنون في الحي يشعرون بحالات اختناق و ضيق تنفس و احمرار في العيون، كان هناك عدد من حالات الوفاة و على الأغلب كان المتوفون أطفالا و نساء.
بعدها دخل الفريق إلى الثكنة، و هناك وجد خليل ضابط أمن ميداني لطالما التقاه في أكثر المناطق سخونة، نادراً ما

كان وجه الرائد جعفر يبتسم و لكن الآن كان يحمل في تقاسيمه غضباً داخلياً .

حياه خليل و أعلمه أنهم قد وثقوا حالة الأهالي و هو يريد الآن أن يصور الثكنة .

أخبره الرائد أنه باستطاعته التصوير لكن يجب أن لا يعرضوا أي مشاهد قبل حصولهم على موافقة مسبقة من الجهات الأمنية و العسكرية حيث أن الموضوع شديد الحساسية.

بعد برهة سأل خليل:

-هل صحيح تعرضت الثكنة لهجوم بغازات سامة؟

-يبدو ذلك، لقد استفسرت عند ضابط الكيمياء يظن أنه صاروخ محلي الصنع وضع به غاز الكلور أو الكلورين.

- و هل يستطيع المسلحون تصنيع هكذا صاروخ بمثل هذه الحشوة؟

-هم يصنعون صواريخ محلية بمختلف الأحجام، حتى أن لديهم صاروخ يطلقون عليه جهنم، رأسه المتفجر عبارة عن أنبوبة بوتوغاز، لقد وصلتنا منذ فترة أخبار مقلقة تفيد بأن

مجموعة مسلحة قد سيطرت على أحد المعامل في الشمال قريباً من الحدود، هذا المعمل أنشأه أحد المستثمرين حديثاً، و ينتج الكلور للغايات الصناعية، أنت تعرف الكلور يستخدم بكثافة في الصناعة و في تعقيم مياه الشرب، بلغنا أنهم قد اخرجوا كميات من الكلور الصناعي تكفي لتصنيع عشرات بل مئات الصواريخ، يمزجون الكلور بالفوسفور و الذي يحترق بحرارة عالية جداً مما يضمن تحول الكلور إلى غاز.

-أنه خطر داهم على السكان المدنيين قبل العسكرين!

- طبعاً، لكن هؤلاء الحيوانات يتاجرون بأرواح المواطنين، فهم مجرد أرقام لديهم و غداً سيتهمون القوات الحكومية باستخدام هذه الغازات.

- أظنهم أرادوا ان يضربوا كما يقال عصفورين بحجر واحد، من جهة يوجهون ضربة للقوات الحكومية و من جهة أخرى يتهمون القوات الحكومية باستخدام الغازات السامة ضد المدنيين.

-على العموم الأمر لن يمر بسهولة، فأنتم كإعلامين ستغطون الحادثة و توثقوها بشهادات الشهود و ستنتشر

الحقائق حتى لو حاولوا أن يطمسوها بأن يزيدوا جرعات الكذب إلى أقصى الحدود، كما أننا سنجهز لهم مفاجئة، سوف ترسل العينات التي جمعناها إلى مخابر أحد أكبر الدول في العالم و التي تقف قيادتها سداً منيعاً إلى جانبنا، و هناك سيحللونها و سيعرفون مصدر المواد المستخدمة في الاعتداء و اعتقد أن النتيجة ستسبب الكثير من الإحراج للجار الشمالي و استخباراته، لأنني متأكد أنهم وراء العملية.

- لقد بلغني نبأ دخول فريق تصوير أوروبي مع مخرج معارض من بلادنا عبر الحدود الشمالية لتوثيق ما يقولون أنه اعتداءات من القوات الحكومية على السكان المدنيين بالغازات السامة، قد يكون توقيت اعتدائهم له علاقة بهذا الأمر؟

- وصلتنا هذه المعلومة و نحن نحاول أن نكشف تفاصيل العملية، و اقسم اننا لن نسامح احداً اشترك بها.

في الأيام و الأسابيع التالية تفاعل الأمر في وسائل الإعلام الوطنية و العالمية، موجة من الكذب و الاتهامات انهالت على حكومة أقدم بلاد اللّه، لكن الدلائل المادية سواء

من شهادات الأهالي أو نتائج التحاليل المخبرية أظهرت ان المواد المستخدمة هي ليست من المخزون الكيميائي للبلاد.

لتغطية هذا الفشل و لمحاولة طمس الدلائل المادية للاعتداء، شنت المعارضة المسلحة هجوماً كبيراً على خان الشهد، بنهاية المطاف تراجعت القوات الحكومية من الحي و تم إجلاء الأهالي و منهم عائلة العم أبو حسن و تم اسكانهم مؤقتاً في احد المدارس و التي حولتها الحكومة إلى مركز لإيواء المهجرين.

بعد فترة رأى خليل على أحد القنوات المعارضة نبأ مفاده أن القوات الحكومية قد استهدفت بقذيفة المخرج دامر و فريق عمله أثناء تواجده في المناطق التي تسيطر عليها المعارضة المسلحة، حيث أدت العملية إلى مقتل المخرج و عدد من العاملين معه.

تاريخ حزب

كان في أقدم بلاد اللّه حزبٌ حاكم، حزب له تاريخ حافل، تماماً كما النهر، نشأ الحزب بعيد الاستقلال و خروج المستعمر الأوروبي من البلاد.

كان في البداية حزباً ضم بعض النخب المتأثرة بأفكار القومية العربية و الاشتراكية، أنضم إلى الحزب لاحقاً العديد من الشباب الذين اعجبوا بطروحات الحزب الجريئة.

نشط الحزب بدعايته في أوساط طلاب المدارس الثانوية و الجامعات و في أوساط العسكريين و الضباط.

تمكن الحزب من الوصول إلى السلطة لأول مرة بواسطة انقلاب في أواسط الستينات، و هنا ظهرت إلى السطح التناقضات الداخلية فيه، فقد نشأ تعارض داخلي بين عدد من الأجنحة داخله.

فقد كان هناك جناح مدني في الحزب يركز على تطبيق الإشتراكية في المجتمع، كما و كان هناك

جناح عسكري يرى أن الفضل الأكبر بوصول الحزب إلى السلطة يعود إلى الانقلاب العسكري الذي قام به العسكريون.

استمرت الصراعات طويلاً بين قيادات الحزب، حيث كانت الأحلاف تعقد بين مجموعات من المدنيين و العسكريين في الحزب ضد مجموعات أخرى، كما و كان يتم التحالف مع أحزاب أخرى لدعم توجه هذا الفريق أو ذلك.

كان الحزب في تلك الأثناء قد انتشر فكره في عدد من الدول العربية و صار له فروع في عدد منها، و في دولة الجار الشرقي تمكن عناصر الحزب كذلك من الاستيلاء على السلطة، و هنا بدل الانتصار الكبير للحزب، ظهر انقسام خطير، حيث أن فرعي الحزب في البلدين المتجاورين لم يستطيعا ان يوحدا البلدين، علماً أن أحد أهم أهداف الحزب كان توحيد الدول العربية في دولة واحدة.

أصبح الصراع يأخذ بعداً أكبر بعدما بدأت القوى الإقليمية و الدولية تدعم هذا الجناح أو ذاك في الحزب.

في تلك الأثناء قامت دولة العدو بالهجوم على أربع دول عربية بشكل متتالي، تمكنت خلالها من هزيمتها كلها و احتلت أراضي تفوق المساحة التي احتلتها سابقاً بأضعاف، و أذلت القوى العسكرية و القومية في الدول العربية كافة، كان هذا النصر العسكري للعدو بداية مرحلة مظلمة في الدول العربية أظهرت زيف أوهام التنمية و الطروحات الإيديولوجية المنتشرة على الساحة العربية.

في أقدم بلاد الله كان أحد رجالات الحزب العسكريين وزيراً للدفاع في أثناء هذه الهزيمة القاسية، لقد اعتبر هذه الهزيمة إهانة موجهة له شخصياً، فبدأ العمل.

بعد بضعة سنوات لما أيقن بعجز القيادات الحزبية الموجودة عن الاتحاد و توحيد صفوفها و استجماع قوات البلاد لمواجهة العدوان الخارجي، قام مع مجموعة من رفاقه بالاستيلاء على السلطة.

كان شخصاً فذاً، أمسك بناصية الأمور ثلاثين سنة، خلالها خاض حرباً ضد العدو كانت نصف انتصار و

كان من الممكن أن تكون انتصاراً كاملاً لولا أن خذله حليفه العربي الأكبر.

بنى مؤسسات الدولة و نظمها بحيث جعل الحزب رقيباً على الجهاز المدني و العسكري في الدولة.

بنى دولة داخلية غير منظورة كانت هي القوى المحركة و الضابطة و الناظمة للبناء الخارجي للدولة الظاهرة.

اتهمه البعض أنه كان قاسياً و لكنه في الحقيقة لم يستخدم القسوة إلا في حالات الضرورة القصوى، كانت الدبلوماسية و بناء التوازنات سلاحه المفضل، عندها حاربه أعدائه بسلاح التطرف الديني، و بعد سنوات من محاولة احتواء التيار الديني اضطر إلى قمعه بقوة فلم تعد له قائمة و لم يعد إلى الواجهة إلا بعد ثلاثين سنة.

كان الحزب الحاكم يعيش أيام نصره في تلك الأثناء، فهو أصبح الحزب القائد للدولة و المجتمع، و بدأ يجند طلاب المدارس الثانوية في صفوفه بشكل ممنهج، و طلاب الجامعات و العسكريين و الموظفين، أصبح

الانتماء للحزب معياراً للولاء كما و أصبح طريقاً للصعود في المناصب.

تضخمت أعداد الحزبين و أصبحوا عدة ملايين و انتشرت بالتالي أمراض الانتهازية في جسد الحزب.

بعد أحداث قمع تمرد المتطرفين الدينين و الذين حاولوا اغتيال زعيم البلاد أكثر من مرة و كادت إحدى محاولاتهم تنجح، لولا أن الزعيم قد ركل القنبلة المرمية أمامه فطارت و انفجرت بعيداً، و قام أحد مرافقيه بالارتماء على القنبلة الثانية فاديا الزعيم بحياته، أما الثالثة فلم تنفجر.

أصبح للناحية الأمنية الأولوية القصوى في حياة البلاد، و أصبحت الأجهزة الأمنية و التي كانت حتى سابقاً كثيرة التدخل في حياة المواطنين، أصبحت الآن تتدخل في كل شاردة و واردة.

بدأت الدولة تكتسب سمعة الدولة البوليسية و كان الحزب ليس بعيداً عن هذا التوجه، فأصبح أفراده مكلفين بكتابة التقارير عن المعارضين.

بعد عقدين قاسيين من المواجهات الداخلية و الخارجية

تغيرت الأجواء الدولية و الإقليمية، و أصبح الحديث يدور عن السلام و تسوية المشكلات و القضايا الخلافية في المنطقة.

حصل تقارب في مواقف أقدم بلاد اللّه و مواقف السيد العالمي المنتصر في حربه الباردة و الساعي إلى تثبيت عهده الجديد.

حُلت الحرب في دولة الجار الغربي و التي كان فيها جيش أقدم بلاد اللّه يواجه في حرب بالوكالة قوات دولة العدو، و أعطيت الوصايا على هذا البلد المضطرب و المتنازع طائفياً إلى زعيم أقدم بلاد اللّه.

قام بسياسته المحببة من خلال بناء التوازنات و القوة الغير منظورة و المكرسة في أجهزة أمنية و عسكرية و حزبية بالسيطرة على دولة الجار الغربي و إعادة بناء الدولة فيه، بعد أن مزقتها الطوائف، وأدخلتها في الفوضى تحالفات زعمائها مع الخارج.

في مستقبل الأيام لن يشكر أحد جيش أقدم بلاد اللّه على ما فعله للحفاظ على بنية الدولة الموحدة، و على آلاف الشهداء الذين قدمهم في أرض الجار الغربي،

سيأتي يوم يُغتال فيه أحد الزعماء الكبار في تلك البلاد، و يُتهم جيش أقدم بلاد الله بذلك دون أي دليل. سيضطر الجيش للانسحاب مطروداً بالأحذية و الطماطم و البيض الفاسد.

لكن ذلك لن يحدث في أثناء حياة الزعيم، سيموت و هو في عز قوته، تاركاً لخليفته دولة مسيطراً عليها بشكل كامل، لها مؤسسات متكاملة، طبقت كثيراً من الاشتراكية و أمنت تكافؤاً معقولا نسبياً في الفرص و توزيع الثروات، تاركاً جيشاً كبيراً يدعمه تشكيل شديد الإيمان و القوة في دولة الجار الغربي، تشكيل نصره الله فقهر دولة العدو و أجبرها أن تنسحب من كافة الأراضي التي احتلتها في دولة الجار الغربي.

رحل الزعيم تاركاً دولة بلا ديون، دولة لها عدد قليل من الأصدقاء و لكنهم من طراز الأصدقاء الذين يقل مثيلهم و تجدهم دائماً إلى جانبك وقت الضيق.

المشفى القلعة

كان خليل في عمله في عاصمة الشمال كثير التنقل، و حيث أن عائلة العم أبو حسن قد انتقلت إلى إحدى مراكز الإيواء فهو لم يعد له سكن ثابت.

كان يقضي أغلب لياليه في المركز الإعلامي، و كان يحاول في كل أسبوع أن يزور عائلة أبو حسن في مركز الإيواء، ربما أصبح يحس أن هذه العائلة هي عائلته، فوالدة خليل كانت متوفاة، و والده تزوج بعدها و أنجب عدداً من الأولاد من زوجته الجديدة، فخفت الروابط الأسرية بين الأب و أبنه من زوجته الأولى.

كان يجلب معه ما يحتاج إلى غسيل من ملابسه، و يجلب بعض الخضار و اللحم، و التي كان يؤمنها بشق الأنفس و بأسعار مبالغة.

كانت أخبار حسن في تلك الأيام غير مطمئنة، حيث حاصرت المعارضة عدداً من النقاط الحكومية المدنية و العسكرية.

كان من أبرز النقاط المحاصرة مطاران عسكريان في الشمال، تمكنت القوات الحكومية من سحب الطائرات منهما و بقيت حاميتان تدافعان عن المدارج و أبنية المطارين.

كان أحد المطارين محاطاً بثلاثة قرى كبيرة كانت منذ الأيام الأولى للأحداث قلباً و قالباً مع المعارضة المسلحة، فلم تتمكن القوات الحكومية من الصمود، فانسحبت بهيئة رتل مدرع باتجاه معسكر كبير للقوات الحكومية يقع جنوباً.

استغلت المعارضة هذا الانسحاب و أعلنته نصراً إستراتيجياً لها، صورت القنوات الفضائية الداعمة للمعارضة المدرجات، و جالت على أبنية المطار و المهاجع، مظهرة أن القوات الحكومية قد هربت في عجالة و فوضى، بضع مروحيات غير صالحة للطيران بقيت في أرض المطار صورت على أنها غنائم حرب، و تسابق عناصر المعارضة المسلحة يتصورون داخلها.

كان طعم النصر لذيذاً، إلا أنه لم يطل، في غمرة احتفالات المعارضين في أرض المطار، خرق صوتٌ

السماء كالرعد، تلاه انفجارات هائلة، عدة صواريخ أرض أرض ضخمة كانت قد انطلقت من قاعدة عسكرية في جنوب البلاد ضربت أبنية و مدرجات المطار.

في خلال ثواني تحول المطار إلى كتلة من النار و الغبار، عندما انقشعت رأى من تبقى من المسلحين ركاماً و دماراً دفن تحته العشرات من رفاقهم .

سيترك هذا الحدث أثره على المعارضين، و سيكونون أكثر حذراً في احتفالاتهم في انتصاراتهم المقبلة.

المطار الثاني كانت قصته مختلفة كان يقع في أقصى الشمال و كان قريباً من حدود الجار الشمالي، و بعد عدة أشهر أصبح لا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة الطائرات، ثم بعد أن حصل المعارضون المسلحون على أسلحة مضادة للطيران سُحبت الطائرات القادرة على الطيران من المطار و بقيت حامية تدافع عنه، كان جل الحامية من فنيي الطيران و عناصر الحماية، خلال فترة حصارهم الطويل و الذي سيستمر قرابة عام سيصبح أسم مطارهم أسطورياً و سيصبح عناصر

الحماية سواء منهم من سينجو أو من سيستشهد حكاية ستستمر أجيال و اجيال بالحديث عنهم.

و إذا كان من الطبيعي أن تحاصر المعارضة القطع العسكرية فقد كان هناك عدد من النقاط المدنية المهمة و التي حاصرتها و لم ترغب القوات الحكومية بتسليمها نظراً لأهميتها القصوى.

أولها كان السجن المركزي في شمال البلاد و الذي كان يضم آلاف السجناء عدا عن حامية قوية من رجال الجيش و الشرطة، ثم كان هناك مشفى الأمراض المستعصية، و هو عبارة عن بناء شاهق يقع في أقصى شمال المدينة.

كان المشفى بناءاً حديثاً و كان مجهزاً بأفضل التجهيزات العالمية لمعالجة الأمراض الخطيرة و المستعصية، في الأيام الخوالي لم يكن في عاصمة الشمال مشفى كهذا و كان المرضى المصابون بأخطر الأمراض يذهبون من كافة مناطق و أرياف البلاد إلى المشفى المركزي المتخصص في العاصمة في جنوب البلاد، كانوا يتحملون إضافة إلى آلام المرض و

مضاعفات العلاج الكيميائي و الإشعاعي صعوبات التنقل و السفر الطويل.

خلال السنوات القليلة السابقة للأحداث تم إنشاء هذا المشفى، كان يقدم خدماته مجاناً على الأغلب أو بأسعار رمزية في بعض الحالات، كان المشفى ملاك رحمة و شعاع أمل أخير بالنسبة للآلاف المرضى في شمال و شرق البلاد، كما و صنف على أنه أحد أفضل المشافي التخصصية في الشرق الأوسط.

لم تخلي القوات الحكومية المشفى رغم أن المعارضين المسلحين قد توغلوا في الأحياء المحيطة بالمشفى و قطعوا كافة الطرق المؤدية إليه، لعل الأسباب كانت عديدة فربما كان ارتفاع البناء و ضخامته من العوامل التي جعلته نقطاً إستراتيجية لم ترغب القوات الحكومية بتسليمها، أو من الممكن أهمية تجهيزات المشفى و ثمنها المرتفع و حداثتها دفعت بالقيادة العسكرية إلى اتخاذ قرار بالدفاع عن المشفى، في كل الأحوال، حوصر حوالي مئة مقاتل حكومي في بناء المشفى، و كان من بين المحاصرين حسن.

عندما قدم خليل لزيارة عائلة أبو حسن في مركز الإيواء، استقبلته العائلة بفرح ممزوج بتوتر.

كانت الغرفة التي تسكنها العائلة غرفة صف مدرسي سابق، لكن حولتها الخالة ام حسن إلى ما يشبه السكن الريفي المريح.

كانت الأرض كلها ممدودة بالسجاد و البسط و كانت طراريح أسفنجية مع مساند ظهر تحيط بالغرفة و وضعت الستائر على النوافذ، كان في منتصف الغرفة مدفئة مازوت وضعت دلة قهوة فوقها ففاحت رائحة القهوة المميزة في الغرفة.

تعجب خليل في داخله كيف استطاعت هذه العائلة الفقيرة و المكافحة أن تنقل معها إحساس الدفء العائلي أينما انتقلت.

كان الأخ الأصغر لحسن و اسمه حسين و هو طالب في السنة الثالثة بالمعهد العالي للعلوم السياسية و أختاه الأولى رشا الطالبة في السنة الأولى في كلية الصيدلة و ريم و التي كانت في المرحلة الثانوية في الصف الحادي عشر، يفترشون ركناً و كل منهم يقرأ في كتاب

فالفترة كانت فترة امتحانات نصف العام الدراسي.

جلس خليل مع العم أبو حسن أما الخالة أم حسن فذهبت تحضر الطعام في المطبخ الجماعي، حيث كان لكل طابق في مركز الإيواء هذا منافع واحدة مشتركة، تضم غرفة خصصت كمطبخ و دورات مياه مقسمة قسمين، قسم للرجال و قسم للنساء. دار الحديث بين خليل و أبو حسن بصوت منخفض كي لا يلتهي الأولاد عن مذاكرتهم.

سأل خليل:

-طمني ما اخبار حسن؟

-أنه يكلمني كل يوم يطمنني على أوضاعهم، فهو و مجموعته موجودون في أحد الطوابق العليا في بناء المشفى، يقول لي أن مدفع ال14.5 الذي يقوم بالرمي منه يكشف نصف الأحياء التي تسيطر عليها المعارضة، لكن التغطية الخليوية ضعيفة جداً و لولا أنه يصعد لأعلى البناء لما تمكنا من التواصل معه.

-إن حسن رجل ابن رجل، أنا لا أخشى عليه، بل لا أحسد أعدائه...

-من هذه الناحية حدث و لا حرج، يقول لي أنه و رفاقه قد تمكنوا من صد عشرات الهجمات و جثث المسلحين مرمية في كل حدب، إلا أنهم يخشون أن يقوم المسلحون بحفر نفق تحت البناء و تفجيره كما عملوا في أكثر من موقع، ثم أنه هناك الانتحاريون الذين يقودون سيارات مفخخة يصدمون بها أجزاء من البناء، ثم يقوم باقي المسلحين بالهجوم، مستغلين الفوضى و الدمار الذي يسببه الانفجار...

-و مع ذلك لا يخشى عليهم، فهم عسكريون محنكون، و مؤكد أنهم قد اتخذوا إجراءاتهم لكي يتصدوا لهكذا محاولات.

كان خليل يطمئن العم أبو حسن بهذا الكلام بينما هو في داخله كان يحمل توجساً كبيراً.

لقد كان المسلحون يزدادون شراسة و خبرة، منذ فترة حفروا نفقا بطول أكثر من مئة متر و فجروا فندقا ضخما كان يستخدمه الجيش كمقر له، كما أن السيارات المفخخة بدأت تكبر حمولتها، حيث وصلت الأمور بالمعارضة بتفخيخ شاحنات بعدة أطنان من

المتفجرات، ثم تدريع مقدمة الشاحنة و إرسالها بأقصى سرعة مع انتحاري في داخلها باتجاه المواقع الحكومية.

❖❖❖

ستصدق هواجس خليل في الأيام التالية، بعد أكثر من نصف سنة من الحصار سيتمكن المسلحون من تفجير مبنى المشفى بشاحنة مفخخة و مدرعة، قالوا أنها حملت أكثر من عشرة اطنان من المتفجرات.
سوف يسقط البناء و يصبح امتداده أفقيا بدل قمته العامودية الشاهقة.
سيموت عدة عشرات مِن مَن تبقى حينها من حاميته تحت الأنقاض. سيقبض المسلحون على عشرة رجال من الحامية أحياء.
بطريقة ما ستجد صورهم طريقها إلى شبكة الإنترنت، عشرة رجال ملتحين بلحى كثيفة، لا أثر للخوف في عيونهم، لشهور طويلة عاشوا الموت يومياً حتى أصبح حدثاً عابراً لم يعد يخيفهم في شيء.

عند تنفيذ حكم الإعدام بهم برميهم بالرصاص في رؤوسهم من الخلف، بقوا جميعاً مرفوعي الرأس، لم يتوسلوا أحداً الرحمة، حيث لم يبقى هناك في هذه الحرب مفهوم لها.

كانت نظراتهم نظرات رجال قاموا بكل ما عليهم، جثث مئات المسلحين حول بناء المشفى المهدم كانت تشهد على هذا لهم.

عند نشر هذه الصور في وسائل الإعلام سيقول احد زملاء خليل له:

-انظر خليل إلى وجوه هؤلاء الشجعان، أنظر، أليس وجه هذا المقاتل يشبه وجه السيد المسيح في الأيقونة؟

نظر خليل إلى الصورة، لم تخفي عنه اللحية الشقراء و خصلات الشعر الطويل وجه حسن، بعيونه الطفولية و التي كانت الآن كأنها تختزن هدوء و سكينة و حزن الكون كله.

سيذهب بتثاقل إلى مركز الإيواء و كأنه في حلم ثقيل لا يستطيع الاستيقاظ منه، سيستقبله أبو حسن بعيون حمراء و بصوت مكسور:

- لم يشئ حسن أن يذهب دون أن نراه، ودعنا آخر مرة...

الحزب ينهض

في أثناء بداية عمل خليل في عاصمة الشمال ذهب إلى لقاء رئيس فرع الحزب في المدينة، كان يحمل رسالة توصية من أبي ناصر إلى الرجل لكي يقدم لخليل ما يمكنه من الدعم في عمله.

بقي هذا اللقاء مع أبي ناصر في ذاكرة خليل طويلاً، لم يكن الرجل كما عرفه خليل دائماً، كان هناك شرود في نظرات و تصرفات الرجل قد لا يلاحظه من لا يعرف أبو ناصر جيداً، كان الرجل يحمل ثقلاً داخلياً كبيراً، حاول مع ذلك أن يبدو على طبيعته.

-إذاً قررت يا خليل العمل في عاصمة الشمال، أشجعك على هذا فرغم أن الأمور هناك ما زالت هادئة نسبياً و مسيطر عليها، إلا أنه تصلنا تقارير غير مطمئنة، فاستخبارات عديدة تهيء لحدث ما، و نحن في صراع مع الوقت لكشف خلاياهم النائمة، حتى وصل الأمر ببعض المسؤولين في دولة الجار الشمالي بالمجاهرة بنيتهم غزو بلادنا و إلحاق الجزء الشمالي بدولتهم، و جعله محمية

تابعة لهم، و كأنهم ما زالوا يحلمون بإعادة بناء إمبراطورتيهم الاستعمارية الغابرة.

-سيدي سأكون عند حسن ظنك في عملي كما عهدتني، و لي طلب عندك أن تعطيني كتاب توصية إلى رئيس فرع الحزب في الشمال فقد أحتاج مساعدته في بعض الأمور المتعلقة بالعمل.

نظر أبو ناصر نظرة شاردة و قال بتنهد:

-لم يعد الحزب يفيد كثيراً كما سابقاً يا خليل فهذه الأزمة وضعتنا جانباً.

فهم خليل من كلام أبي ناصر أنه يقصد المطالبات المتكررة و التي كانت تطالب بها المعارضة بإلغاء المواد التي تعطي للحزب الحاكم أفضلية على غيره من الأحزاب من الدستور على اعتبار أن هذا وضع شاذ.

-هل تقصد سيدي أن التعديلات الأخيرة التي أقرتها الحكومة و نظم بها استفتاء شعبي و التي ألغت أي امتيازات للحزب الحاكم و ساوته بباقي الأحزاب في البلاد هي التي أثرت تأثيراً كبيراً على الحزب.

-لا ليس هذه الجزئية، فهذه قد تكون على العكس

نقطة مهمة للحزب لاستنهاض ذاته و إعادة تنظيم نفسه على قاعدة نقد تجربته السابقة، المشكلة أن القيادة يبدو قد فقدت الثقة في الحزب.

-و ما هو السبب برائيك؟

-سابقاً يا خليل عندما كانت تحدث اضطرابات في بلادنا و كان عدد الرفاق الحزبيين في حزبنا لا يتجاوز عشرة آلاف كنا قوة يحسب حسابها، كثيراً ما حاول التجار القيام بإضرابات لإحراج قيادتنا السياسية، كنا نفتح المحلات في الأسواق و نقوم بالبيع بالنيابة عنهم، فكانوا يهرعون إلى محلاتهم و لا يعيدونها البتة، كنا عند حدوث أقل أزمة نوزع السلاح على كل الرفاق الحزبيين، و نوكل إليهم حماية النقاط الحكومية و الاقتصادية و الخدمية، اليوم عندما أصبح الحزب يضم أعضاء بالملايين، لا نستطيع تنظيم الدفاع عن مقرات الحزب، في عدد من المحافظات أحرقت مقرات الحزب بل و أكثر من ذلك إن العديد من القيادات الحزبية البارزة في المحافظات هي من تسهل للمعارضة المسلحة الدخول و الاستيلاء على المدن و البلدات.

- ألم تطلبوا من القيادة السماح لكم بتسليح من تثقون به من اعضاء الحزب؟

-لقد بدئنا بهذا بشكل محدود و غير منظور منذ بداية الأزمة، المشكلة أن الكثير مِن مَن وزع عليهم السلاح قد انضموا إلى المعارضة و خاصة في المناطق التي بها حاضنة شعبية للمعارضة، و الكثيرون في المناطق التي ما زالت تحت سيطرة الدولة يراقبون تطور الأوضاع، فلا ثقة كبيرة بهم، قد ينقلبون في أية لحظة.

-و ما هو دور قيادات الحزب العليا ، لماذا لا تبادر بتنظيف الحزب من الداخل؟

-القيادات العليا للحزب هم جزء من المشكلة و ليسوا جزءاً من الحل، قيادات مترهلة أغلبيتهم أشخاص سبعينيون يطمحون أن ينهوا حياتهم بسلام وأن يحافظوا على المكتسبات التي تنعموا بها طويلاً، منذ بداية الأزمة المسؤول الرئيسي عن الحزب لم يصدر عنه و لا أي موقف ذي قيمة، لم يزر جريحاً، لم يواسي عائلة شهيد، الحزب باختصار يبدو في حالة غيبوبة...

-و ماذا ستفعل أنت كمسؤول كبير في الحزب حيال

هذا الوضع؟

-ليس باستطاعتي فعل الكثير، فأنا في منصب مهم و لكني لست في أعلى الهرم و هكذا حالة بحاجة إلى قرارات من أعلى المستويات، و لكني لم أتعود أن أيأس أحاول أن أقوم بما استطيع عليه.

في نهاية هذا اللقاء و رغم النبرة المتشائمة لأبي ناصر قدم الرجل كتاب توصية إلى خليل ليقدمه لأمين فرع الحزب في عاصمة الشمال و تودعا على أمل اللقاء مجدداً.

لم يكن خليل يعرف أن هذا اللقاء سيكون لقائه الأخير بأبي ناصر، بعد حوالي نصف سنة و أثناء كونه في عاصمة الشمال المحاصرة سيصل إليه خبر استشهاد أبي ناصر، سيقضي الرجل بعبوة ناسفة وضعها سائقه الخاص تحت طاولة الاجتماعات في مكتب أبي ناصر، ستنفجر العبوة أثناء أحد الاجتماعات الهامة و تودي بحياة عدد من المسؤولين المدنيين و العسكريين.



في الفترة الأولى لقدوم خليل إلى عاصمة الشمال ذهب إلى زيارة أمين فرع الحزب فوجده رجلاً شعبياً متواضعاً تناقش

معه في عدد من الموضوعات الساخنة، و وعده بتقديم أية مساعدة يحتاجها، و شكره في النهاية على زيارته، مثمناً دوره الإعلامي، و قال له في النهاية ممازحاً:

-أنت لست بحاجة لتوصية من أحد، عملك هو الشهادة التي تفتح لك الطريق إلى قلوبنا، مع هذا أبلغ سلامي للرفيق أبي ناصر.

لاحظ خليل اختلاف وضع الحزب في عاصمة الشمال عن وضعه في العاصمة، في العاصمة كان الحزب مصاباً بكثير من أمراض السلطة بينما هنا ما زال به الكثير من نقائه الأول.

في أيام الحصار سينكشف هذا الأمر جلياً لخليل، سيقوم رئيس فرع الحزب و بمبادرة منه و على مسؤوليته بتنظيم كتائب من الرفاق الحزبيين، قاتلت هذه الكتائب قتالاً عقائدياً حقيقياً على كافة جبهات المدينة المحاصرة، عكست فيه نهضة جديدة للحزب.

بعد عدة أشهر من بداية الحصار سيحاول المسلحون المعارضون احتلال مطار المدينة، هذا المطار بكونه محاطاً بعدد من القطعات العسكرية من دفاع جوي و مدرعات

لحمايته، كما وبه كذلك مطار حربي، سيكون احتلاله مهمة صعبة، لن تقدر المعارضة المسلحة عليها رغم حشدها لألاف المقاتلين لتحقيق هذه الغاية.

بعد قطع الطرقات البرية إلى المدينة بقي المطار صلة الوصل الرئيسية لها، و سيستميت المعارضون في احتلاله او على أقل قدر توقيف نشاطه.

لواء الحماية

بدأت قنوات الإعلام الفضائية و على رأسها بضع محطات خليجية بالضخ المكثف لأخبار سقوط المطار في عاصمة الشمال، بدأت التقارير المصورة تتكاثر على هذه القنوات من مناطق عديدة محيطة بالمطار بحيث كان يتولد لدى المشاهد اعتقاد أن المعارضة المسلحة باتت قاب قوسين أو أدنى للدخول إلى المطار و السيطرة عليه.

و حيث أن اقناع المشاهد كان يتطلب لهذه المحطات أن تصور من داخل المطار و هذا طبعاً لم يكن متاحاً لها، فبدأت تركز على السقوط التدريجي للقطعات العسكرية الحامية للمطار.

كان أحد أهم هذه القطعات لواء الحماية المدرع المكلف بحماية المطارين العسكري و المدني.

بعد توارد أخبار عديدة على هذه المحطات عن سقوط او قرب سقوط هذا اللواء قرر خليل و فريقه الذهاب إلى موقع اللواء و إجراء تقرير مصور من داخله.

كان الطريق إلى اللواء خطراً، فقد كان يتعرض لنيران

القنص من الجانبين، ترك الفريق سيارة المركز الإذاعي ما قبل كيلومترين من اللواء و اكملوا طريقهم على متن مدرعة أمنها قائد القطعة العسكرية التي وصلوا إليها.

داخل اللواء استقبلتهم حالة معركة حقيقة، كان كل دقيقة أو اثنتين تسقط قذيفة هاون، أو رشقة من مدفع رشاش من جهة المنازل البعيدة و التي كان يختبئ داخلها عناصر المعارضة.

تمركز خليل و فريقه في مقر قيادة اللواء بانتظار قدوم قائد اللواء و الذي كان يتفقد مواقع قواته، عاد القائد بعد حوالي نصف ساعة، كان مهموما و بدا الانزعاج عليه.

عرفه خليل على الغاية من قدومهم إلى اللواء، و أنهم يريدون أن يظهروا للعالم كله أن اللواء لم يسقط و أن حماية المطار مؤمنة.

حاول قائد اللواء أن يبتسم بصعوبة :

-نحن ما زلنا صامدين في مواقعنا و لكن لا نعرف ماذا ستحمل الأيام لنا، منذ عدة أيام و اللواء يتعرض لقصف يومي و محاولات اقتحام، منها محاولات أثناء النهار و منها

محاولات ليلية، و قد استقدمت المعارضة عدداً من الدبابات و تقوم حالياً بقصف اللواء باستخدامها، قام طيراننا بالتعامل معها، إلا أنهم استمروا بالتحشد، يتمركزون في بعض الأحياء المحيطة بمقر اللواء و قد وضعوا عددا من المدافع المختلفة على أسطح المنازل العالية فأصبحوا في وضع يشرفون فيه على اللواء.

-و لكنهم لم يسيطروا و لا على أي جزء من أرض اللواء؟

-لا لم يسيطروا، و كل ما يتناقلونه عن ذلك هو كذب، أنا بنفسي جلت على الساتر الترابي المحيط باللواء، جنودنا متمركزون في جميع النقاط، و رماة المدافع في مرابضهم و أطقم المدرعات و الدبابات جاهزون للقتال بشرف فداء للوطن..

-هل نستطيع ان نصور أجزاء من اللواء لكي نظهر هذه الحقيقة للجمهور؟

-بإمكانكم و لكن يجب أن تكونوا حذرين جداً، أغلب أجزاء اللواء مقنوصة، تحركوا فقط ضمن الخنادق، سأرسل معكم حاجبي ليرافقكم..

سار الفريق عبر خنادق محفورة حديثا ضمن أرض اللواء، قام مصور الفريق بالتقاط مجموعة من الصور لمحيط اللواء كما و سجل خليل تقريراً عن حالة اللواء و هو واقفٌ بجانب سارية كان يرفرف علم البلاد فوقها.

لم يمضي للأسف كل شيء على ما يرام، رصاصة قناص هشمت كتف أحد الجنود من فريق الحماية المخصص للفريق الإعلامي.

كان أصغر الجنود، عمره تسعة عشر عاماً و كان الجميع ينادونه حمودة..

أسعفوه إلى مقر قيادة اللواء، و هناك كانت الأمور تزداد سوءا قذيفة سقطت بجانب القيادة استشهد على إثرها رئيس الأركان و جرح قائد اللواء بشظاياها.

كان الوضع خطراً، و لكن حياة حمودة كانت حالياً هي المعيار الذي أخذ يفكر به خليل، سأل سائق الفريق العم جاسم:

-هل يمكن أن تأتي بالسيارة إلى أقرب نقطة من اللواء و سنزحف باتجاهك؟

-لقد راقبت طريق العودة منذ قليل هو مقنوص

بالكامل، هناك عدة سيارات مرمية على جانبيه، بعضها ما زال يحترق، يبدو أنه قد تم قنصها خلال الساعات الأخيرة..

-كيف يمكن يا أخ جاسم أن نسعف الجريح؟

-لاحظت أنه هناك منطقة زراعية خلف اللواء بها أشجار عالية، من الممكن لمجموعة صغيرة أن تتسحب عبرها و معها الجريح و من هناك عبر الأراضي الزراعية يمكن أن نصل إلى سيارتنا.

-و من سيتطوع لهذه المهمة؟

-لا يمكن لأحد القيام بها غيري، فأنا أعرف أين خبأت السيارة تماماً، و بما أن أفضل وقت للقيام بهذه المهمة هو عندما يحل الظلام سيكون صعبا على أي أحد أن يوجد السيارة، لكني بحاجة إلى شخص أو شخصين معي لكي يساعدانني في نقل الجريح.

اقترح خليل الموضوع على قائد اللواء و الذي كان للتو قد تم تضميد رأسه بضماد ابيض، أقر قائد اللواء أن الموضوع لا يخلو من الخطورة إلا أنه الطريق الوحيد المتاح حاليا لإسعاف الجريح، و الذي بدأت حالته تسوء أكثر فأكثر

و بدأ بالهذيان في تطور لا يبشر بالخير في حالته، إلا أن القائد أكد عليه أن لا تكون المجموعة كبيرة، حيث هكذا تكون فرصتهم أكبر للمرور دون أن يلاحظهم أحد.

كان القرار صعباً على خليل إلا انه كان القرار الصائب الوحيد في نظره، انطلق السائق العم جاسم و معه اثنان من العسكرين من حماية الفريق الإعلامي عبر الأرض الزراعية، ودعهم خليل عند السور الخلفي للواء، كما أنه أعطى العم جاسم كاسيت التسجيل الذي قام به الفريق على أرض اللواء، أوصاه أن يسلمه لرئيس المركز الإعلامي و أن يتم الاستعجال بعرضه.

عندها ابتلع الظلام الدامس الرجال الثلاثة و معهم الجريح الذي كانوا يحملونه على نقالة.

بقي خليل و المصور أنور و الرقيب هشام ليبيتوا ليلتهم في أرض لواء حماية المطار، احتفظ خليل ببندقية حمودة و جعبة الرصاص، ارتدى الجعبة، ثم سار مع أنور و هشام إلى أحد غرف اللواء و التي خصصت لمبيتهم.

جلبوا لهم بعض الطعام البسيط و غلوا إبريق شاي على

الحطب، بعد أن تناولوا طعامهم أخلدوا للنوم، كانت حدة الاشتباكات قد خفت، مما جعل خليل يتفائل أكثر بإمكانية نجاح المجموعة في الوصول بسلام.

استيقظ خليل بشكل مفاجئ كانت الدنيا ما زالت منتصف الليل، إلا أن الجو كان مليئاً بأصوات الانفجارات و أزيز الرصاص، استفهموا عن الأمر ، كان هجوماً ليلياً مفاجئاً على اللواء من عدة اتجاهات، دون أن يتفق الثلاثة اندفعوا إلى أقرب متراس أمامهم و استلقوا بجانب الجنود الموجودين عليه.

صوب خليل بندقيته و بدا يتحين الفرصة ليطلق الرصاص، كان لدى خليل خبرة عسكرية لا بأس بها حيث كان قد أجرى عدة دورات عسكرية أيام الدراسة في معسكرات للحزب و منها حتى دورة للقفز المظلي، إلا أنه في حياته لم يتواجد في معركة حقيقية. كانت الرؤية سيئة و كانت قنابل الإنارة تنير جانباً من أرض المعركة، إلا أنه حاول أن يطلق الرصاص بهدوء، رصاصة رصاصة، دراكاً، كان يعرف ان كل رصاصة قد تكون قيمتها لا تقدر عند الحاجة إليها، سره أن يرى خيالاً أسود كان يركض

باتجاهه، عندما أطلق عليه خليل النار سقط على الأرض، أطلق على الكتلة السوداء على الأرض رشقة قصيرة ليتأكد من قضائه عليه.

فجأة تعالت أصوات التكبير من الجهة اليمينية، رأى خليل أحد الضباط يقود مجموعة من الجنود يركضون باتجاه اليمين ثم تحركت مدرعة و دبابة خلفهما، كانت الاشتباكات تجري في منطقة قريبة جداً و على الأغلب داخل أرض اللواء.

كان هشام إلى جانبه يطلق نيران رشاشه بهدوء يبز هدوء خليل كما لو أنه في حقل للرمي و ليس في أرض المعركة، كان أنور كذلك إلى جانبهم كان قد جلب كمرة التصوير إلا أن ظروف الإنارة لم تكن تسمح له بالتصوير، فاكتفى بالاختباء خلف المتراس بجانبهما.

رباطة جأش هشام طمئنت خليل، فاستمر بإطلاق الرصاص بهدوء على الكتل السوداء المتحركة في أرض المعركة أمامه.

فجأة ظهر سهمان ناريان أمامهما، و توالت الانفجارات على متراسهما، من شدة المفاجأة انسحب خليل إلى أسفل

محتميا بالأرض، بعد برهة تبعه هشام.

سأل هشامً:

-ماذا كان هذا؟

-على الأغلب إنه مدفع مضاد للطيران عيار 23 يضربون رصاص متفجر، و هذا النوع من السلاح لا مزاح معه، رصاصته تخرق الحائط كطبق من الكرتون.

فجأة دوى هدير مدفع دبابة خلفهم و ظهرت كتلة من نار في نفس الاتجاه الذي كان يضرب منه مدفع المعارضة، تبع القذيفة الأولى عدة قذائف أخرى، لم يعد مدفع المعارضة لإطلاق النار ثانية، قد يكون أصيب أو قد يكون من يطلق النار منه قرر الانسحاب احتماءً من ضربات الدبابة.

استمرت المعركة حتى الفجر، خفت حدتها مع بزوغ أشعة الشمس الأولى و التي كشفت أمام خليل مشهداً غريباً، عشرات جثث المسلحين مرمية في وضعيات مختلفة، عدة مركبات محترقة يتصاعد منها الدخان، حفر مكان سقوط القذائف...

حمل الصباح اخباراً جيدة للمدافعين عن اللواء، مجموعة

من القوات مكونة من   الكتائب الحزبية و الدفاع الوطني، هاجمت قوات المعارضة التي كانت تقطع الطريق الواصل إلى اللواء، آزرتهم المدفعية و الطيران بقصف مكثف للمناطق التي تسلل إليها المسلحون، كما و تحركت معهم عدد من الدبابات و المدرعات من المدينة، انسحب المسلحون و تمركزوا في نقاط تبعد عدة كيلومترات عن اللواء.

في صبيحة اليوم التالي عندما أصبح الطريق مؤمناً تماماً، ودع خليل و رفيقيه قائد اللواء و عناصر اللواء الذين تقاسموا معهم خطر الموت و فرحة النصر، و انطلقوا مع القافلة التي سلكت طريق عاصمة الشمال محملة بالجنود الجرحى و الشهداء.

كبرت فرحة خليل عندما دخل المركز الإعلامي، فأخبره سائق الفريق العم جاسم أن حمودة أجريت له عملية عاجلة في مشفى المدينة في الليل الفائت، و هو الآن قد زال الخطر عنه، و أما الشريط الذي صوره الفريق فقد أصبح في غرفة المونتاج يتم التحضير لبثه.

عندها اتجه خليل إلى مركز الإيواء و هو لا يريد شيئاً

سوى أن ينام بضعة ساعات.

كسر الأصنام

الجزء الأول

عندما وصل سامر إلى مدينته على النهر العظيم وجد فيها ما سره، فرغم الظاهر المستقر، كانت الأمور ليست على ما يرام للسلطة في هذه المدينة.

قبل عدة أشهر زار رئيس البلاد المدينة، و صلى صلاة العيد بها، فخرجت مسيرات تأييد له ضمت عشرات الآلاف من الأشخاص، تجول الرئيس بينهم رغم أن الأحداث كانت قد اخذت منحى خطيراً في كثير من المحافظات، فكان المظهر العام كما لو أن هذه المحافظة قلباً و قالباً مع هذا الرئيس، إلا أن هذا كان الظاهر فقط.

كان هناك ثلاثة قوى رئيسية تعمل ضد النظام و هذه القوى لمسها سامر بوضوح.

فأولا كان هناك التيار الليبرالي في المدينة، و كان يمثله مجموعة من المثقفين و هم جلهم من الأطباء و المهندسين و غيرهم من الحاصلين على شهادات جامعية و علمية رفيعة، كان هؤلاء يعارضون النظام على خلفية اتهامه بأنه مستبد

و غير ديمقراطي، كما كان هناك التيار الديني و الذي كان يزداد نفوذه تدريجياً خاصة بين أبناء العشائر و الذين كان لهم سطوة كبيرة في المدينة و ريفها، و القوى الثالثة و الأكثر خطورة كانت من داخل النظام نفسه، ثلة من المسؤولين عن أجهزة الدولة المدنية و الأمنية في المحافظة من أعلى المستويات، كانت هذه فرصتهم ليقوموا بصفقات العمر و التي ستجلب لهم ملايين الدولارات.

تعرف سامر على عدد من المثقفين في المدينة ممن كانوا يشاطرونه أفكاره الليبرالية و عدائه للنظام، و كانت المجموعة تجتمع يومياً في المساء في عيادة الطبيب سعيد.

كانت العيادة تقع في مركز المدينة بجانب فرع الحزب، و كان سعيد من عائلة غنية و مثقفة، و كان الداخل إلى عيادته يتفاجأ بالتماثيل و اللوحات العديدة الموزعة في أنحاء العيادة الكبيرة، و التي كان ملحقاً بها في قسمها الخلفي مرسم و مكان للنحت، سعيد لم يكن فقط طبيباً مشهوراً بل كان كذلك نحاتاً و رساماً ذائع الصيت.

كانت المجموعة التي تجتمع جلها من نفس الطبيعة، فطبيب الأسنان مهند كان يكتب الشعر و الرواية، و

المهندسة وفاء كانت ترسم البورتريه و لها محاولات في كتابة القصة القصيرة، أما المحامي صالح فكان يحاول أن يكتب السيناريو و رغم أنه كتب عدداً من السيناريو إلا أنه لم تتبنى أي شركة إنتاج أي منها لغاية تاريخه، كما و كان الأستاذ المسرحي المخضرم فايز مدير مسرح المدينة يكمل المجموعة.

كانوا يأتون في الغالب ليجتمعوا بعد الساعة التاسعة مساء حينها يكون سعيد قد أنهى استقبال مرضاه و يكون جميع أفراد المجموعة قد انتهوا من أعمالهم اليومية الاعتيادية ليتفرغوا لسهرة يناقشون بها أموراً تمتد من الأدب و الفن إلى السياسة و الدين.

في هذا اليوم جاء سامر كعادته على مهل فهو لم يكن لديه شيء ليقوم به أثناء النهار، حاول أن يضيع بعض الوقت أثناء قدومه لكي تصبح الساعة التاسعة، كان أمام عيادة الطبيب سعيد حاجز للقوى الأمنية، كان هذا الحاجز يحمي مقر الحزب الحاكم المجاور للعيادة، كان الجنود يفتشون جميع الداخلين إلى المنطقة أو يكتفون بالتأكد من هوياتهم حسب الحالة الأمنية، أخرج سامر

هويته دون اكتراث مبرزاً إياها للرقيب المسؤول عن الحاجز، ابتسم الرقيب قائلاً:

-ما في لزوم أستاذ، حضرتك صرت معروف إلنا، كل يوم بتجي بتسهر بالبناء جانب حاجزنا..

حاول سامر أن يتصنع ابتسامة، و حيث أنه في ذلك الوقت كان يحمل سيجارة في يده نسي أن يشعلها بادره الرقيب قائلاً:

-أتريد ولعة؟

هز سامر رأسه بالإيجاب، أشعل له الرقيب السيجارة مع استمراره بالابتسام، توطد بعد ذلك نوع من العلاقة الودية الغير ملحوظة بين سامر و هذا الرقيب رئيس الحاجز، كان سامر يراقبه أحياناً من نافذة العيادة فيلاحظ الأسلوب المحترم الذي يتعامل به الرقيب مع جميع المارة، كما و عرف أن أسمه يوسف، وكثيراً ما كان سامر يقول في نفسه: حرام أن يخدم هذا الشاب المحترم و غيره من الشباب الذين يمثلون زهرة الوطن هذا النظام الملعون.

في هذا اليوم كانت الأحاديث في عيادة الدكتور سعيد أكثر حيوية من الجلسات السابقة و مما ساعد في زيادة

حيوية الجو، زجاجة ويسكي شيفاز أخرجها سعيد من بار سري كان قد فصله في داخل إحدى الخزائن في العيادة، تولى الأستاذ فايز صب الكؤوس واضعاً كمية أكبر من الماء و الثلج في كأسي مهند و سامر، و مزيداً عيار الوسكي له و لسعيد، أما وفاء فأكتفت بكأس كولا تمت إضافة القليل من الوسكي إليه، وزعت وفاء بمهارة و جمالية صحون المقبلات على المجموعة، كان ليس صعباً على أي مراقب أن يلاحظ الاهتمام الكبير الذي كانت تبديه وفاء للطبيب سعيد، و الذي كان يبدو أنه لا يريد أن يظهر منه أي شيء اتجاه اهتمامها، أقله في العلن، كما كان لا يخفى على من يدقق في وجوه المجموعة الاهتمام الذي كان يرمق به الطبيب مهند المهندسة وفاء.

منذ قدومه إلى المدينة و تعرفه على المجموعة انتبه سعيد إلى وجود هذا المثلث، وفاء تحاول استمالة سعيد، مهند معجب بوفاء، لم يكن يعرفهم بشكل جيد و لم يكن يعرف بواطنهم بما فيه الكفاية، فقرر أن لا يتدخل أكثر في هذه القضية و أن يترك الأيام تكشف له خبايا النفوس.

بدء سعيد الحديث:

-هل سمعتم آخر خبر، قرر مجلس المعارضة المقيم في دولة الجار الشمالي تشكيل حكومة في المناطق المحررة من البلاد ، لكي تديرها و تؤمن الاحتياجات الضرورية بها من خدمات صحية و تعليم..

أجابه فايز و قد بدأ وجهه يحمر من المشروب الذي كان أسرع الحاضرين في تناوله:

-كلهم لصوص، أسألني عنهم، كنت في الماضي أعرف الكثيرين منهم شخصياً، حثالة انتهازيون، يتاجرون بقضية الشعب و هم مقيمون في فنادق الخمس نجوم في عواصم أوروبا و عاصمة الجار الشمالي، قضية الثورة بالنسبة لهم كالبقرة الحلوب، كل واحد يحاول أن يكسب أكثر و يضخم أرصدته المصرفية، لن يغامروا بأن يأتوا إلى المناطق المحررة حيث من الممكن على النظام أن يستهدفهم بالمدفعية أو الطيران، إنها مجرد دعاية لكي يتصوروا داخل أراضي البلاد، و في الواقع زيارتهم لن تستمر أكثر من بضعة ساعات، و ستكون تحت حماية مخابرات الجار الشمالي، بعدها سيرجعون إلى فنادقهم و سيتركون الثوار الحقيقيين يواجهون جيش النظام في

الخنادق..

هز سعيد برأسه :

-أتفق معك بالرأي، إن الكثير منهم انتهازيون، فالثورات كما يقال يصنعها الشجعان و يقطف ثمارها الجبناء، و لكن ما لفت نظري الثقل الكبير للتيار الديني الذي بدا واضحاً أنه يسيطر على قرارات مجلس المعارضة، فالمتدينون لديهم النسبة الكبرى من المقاعد، يختارون رئيس المجلس من أحد الأعضاء العلمانيين أو الليبراليين، فقط ليغطوا على واقع أنهم يسيطرون على المجلس.

عارضه مهند و الذي لم يشف من كأسه شيئاً:

-يجب أن نعترف أن أكثرية الشعب لدينا هم أشخاص متدينون، و لو كانت الظروف تسمح بإجراء انتخابات حرة و نزيهة في البلاد لكانت الأحزاب الدينية بكل تأكيد هي المنتصرة.

تدخل سامر في النقاش، لا سيما أن المجموعة كانت تحب دائماً سماع تعليقه فهو الأستاذ الجامعي القادم حديثاً من العاصمة، بما يحمله من اطلاع على أمور قد يجهلونها في محافظتهم البعيدة.

-يجب أن نميز بين الأحزاب الدينية فهي ليست كلها متشابهة، فهناك الأخوان المتدينون و هم أكثر براغماتية، قياداتهم موجودة في الغرب، و قد شذبوا الكثير من طروحاتهم الأولى بحيث أصبحت مقبولة على نطاق واسع في العالم الغربي، بعكس باقي الحركات الدينية المتطرفة و التي يخاف منها الغرب أكثر من أي شيء، لأنه في المحصلة لا شيء يردعها..

ابتسم سعيد نصف ابتسامة ثم شرد بعيونه بعيداً:

-آخر ما يهمني ما هو الاتجاه الذي يلقى قبولاً لدى الغرب، الشعب انتفض في بلادنا مطالباً بالكرامة، بالعدالة، بالمساواة، بسيادة القانون، بالقضاء على الاستبداد، بالتنمية الحقيقية، نحن في بلادنا لم يكن لدينا أبداً مشكلة دينية، على العكس تقول الاحصائيات أن عدد المساجد التي بنيت في بلادنا خلال الأربعين سنة فائتة يعادل عشرة أضعاف المساجد التي بنيت في أربعمئة سنة.

عارضه مهند:

-ليست المشكلة في عدد المساجد، لقد استخدم النظام

بعض المظاهر الدينية ليكتسب شرعية لدى بسطاء الشعب لا أكثر، أو ظن أنه بهذه الطريقة سيرضي الفئة المتدينة من المجتمع، هناك نهضة دينية حقيقية في منطقتنا يقودها التيار الديني المعتدل، فهذا التيار يحكم في دولة الجار الشمالي و ها هي دولتهم بقيادة هذا التيار قد أصبحت بمصاف الدول الصناعية والاقتصادية الكبرى، لقد حارب التيار الديني المعتدل الجريمة و الفساد، فأحبه الشعب لما حققه له من رخاء و أمان، منع تدخل العسكر في الحياة المدنية، و حاكم الجنرلات الذين حاولوا القيام بانقلاب عسكري و سجنهم، لولا الدعم الشعبي و الانجازات الواضحة في كل المجالات لما استطاع رئيس الحكومة في دولة الجار الشمالي أن يصمد في وجه العسكر و الليبراليين و العلمانيين و زعماء المافيات، و اليوم دولة الجار الشمالي مثار إعجاب الأوروبيين و هي نموذج يجب أن نحتذيه في تنظيم بلادنا..

أطلق فايز قهقهة ساخرة:

-لا تحدثني عن الديمقراطية في دولة الجار الشمالي العزيزة، إنها دولة مافيات، كلهم من رئيس وزرائهم و

لغاية أي رئيس بلدية أو مخفر هم مافيات، إن قمع النظام لدينا هو لا شيء أمام الألة القمعية هناك، لدي أصدقاء كتاب من هناك جلهم لا يستطيع أن يكتب مقالة يعبر فيها عن رأيه الحقيقي، أما من يتجرأ فأبواب السجون مشرعة أمامه و تلفيق التهم ليس أسهل منه، و الشرطة و القضاء دائما في خدمة الطغمة الحاكمة، الصحف و المجلات كلها تتبع لهذه المافيات، لي صديق يعمل كاتباً يمضي في السجن أكثر من خارجه، يفرجون عنه، يكتب مقالاً، فيسجنونه بأية تهمة تخطر على بالك و هكذا، أشهر كتاب دولة الجار الشمالي أمضوا حياتهم في السجون، عن أية ديمقراطية تتحدث...

أجاب مهند محتداً:

-أنت تتكلم عن الحكومات السابقة في دولة الجار الشمالي و ليس عن الحكومة الحالية، إن حالة الازدهار في بلادهم واضحة، و الدولة تقوم بواجباتها على أتم وجه، أما نقدك لها فأظنه من كثرة المشروب الذي شربته.

-أنا أشرب كثيراً و لكن ذهني يبقى متوقداً و يساعدني المشروب في إطلاق لساني، إن دولة الجار

الشمالي و حكومتهم الدينية العزيزة على قلبك هي دولة مافيات، هم إناس براغماتيون، يدعمون الثورة لدينا لأن دول النفط العربية تدفع بسخاء لقاء مرور شحنات الأسلحة عبر أراضيهم و تسهيل مرور المقاتلين الأجانب إلينا، الجميع يقبض من رئيس الوزراء إلى رئيس أصغر بلدية على الحدود، المعارضون يشترون السلاح بأرخص الأسعار في أوروبا الشرقية و يكلفهم إيصاله عبر دولة الجار الشمالي أضعاف ثمنه، أين الموقف المبدئي لرئيس وزرائهم منذ سنة و هو في زيارات عائلية متبادلة لا تنتهي مع رأس النظام لدينا؟

تدخل سعيد في النقاش الذي بدأ يحتد بين فايز و مهند:

-على كلا إنها لعبة مصالح و للجميع الحق أن يسعوا وراء مصالحهم فلا داعي أن تحتدوا، كما أنه لا يوجد سياسي بلون أسود أو أبيض خالص، كلهم ينتمون إلى تدرجات اللون الرمادي.

-لا ليست مجرد مصالح، و ليست القضية في أن السياسة لعبة وسخة، هناك أناس لدينا ـ و أشار الأستاذ فايز برأسه إلى مهند ـ يريدون أن يرجعوننا إلى عصور

الظلام، باسم النظام الديني المعتدل يريدون أن يرجعوا احتلال الجار الشمالي الوسخ إلينا ، مئة نظام وطني فاسد و لا أن يرجع إلينا احتلال العاهرة الشمالية المرتدية ثوب الدين و رائحة العهر تفوح منها..

ساد نوع من الهرج و تداخلت أصوات الحضور ما بين مؤيد و معارض فأراد سعيد أن يبرد الأجواء، فدعى الحضور لكي يتجولوا في القسم المخصص للرسم و النحت في عيادته حيث كان هناك عدة لوحات و منحوتات جديدة ، بعضها أتمه سعيد و بعضه ما زال قيد العمل، انقسم الحضور مجموعتين و توزعوا ما بين المنحوتات و اللوحات.

كان سعيد يسير بمحاذاة المهندسة وفاء و معهم مهند، توقفوا عند تمثال نصفي لامرأة كاشفة عن الجزء الأعلى من صدرها ، كان ما يزال سعيد يعمل على اتمامه، سألت وفاء و كان بصوتها نوع من الغيرة المخفية:

-من هي صاحبة التمثال؟ يبدو أنك على علاقة وطيدة بها لكي تقبل أن تصورها بهذا الشكل الشبه عاري؟

-صدقيني لا أعرف من هي..

-هل تصور التمثال من خيالك إذا؟

-قطعاً لا ، فليس لدي هكذا مخيلة أو بالأحرى هكذا مهارة فائقة لأنحت شيء لا أراه أمامي..
-إذاً...
سار سعيد ضاحكاً إلى خزانة في المرسم و أخرج منها ألبوماً به العديد من الصور العالمية، قلّب صفحاته، و فتح الألبوم على صورة التمثال الذي كان ينحته..
سألته وفاء و نوع من الانتصار الداخلي كان يرن في صوتها :
-و لما تبحث عن صور لتصنع تماثيل لها ، لما لا تبحث عن أحدٍ من محيطك و تصنع له تمثالاً ، أم أنك لا ترى حولك أحداً جميلاً يقدر أن يحرك إلهامك؟
في تلك الأثناء كان سامر يتجول برفقة المحامي صالح و الأستاذ فايز، كانوا أقل اهتماماً بالرسوم و المنحوتات و استمر الحديث بينهم، حيث تكلم المحامي صالح :
-إن كلام الأستاذ فايز و رغم حدته به جوهر من الصدق، لي صديق من كبار الاختصاصين في الاقتصاد أكد لي ذات مرة نفس الكلام الذي ذهب إليه الأستاذ فايز، إن النجاحات الاقتصادية الملحوظة في دولة الجار

الشمالي تعود في أساسها إلى فترة التسعينات من القرن الماضي عندما انهارت الكتلة الإشتراكية و بدأت التجارة تنشط بين دولة الجار الشمالي و الدول الاشتراكية السابقة و على رأسها دول الاتحاد السوفييتي السابق، صدروا كل شيء الملبوسات، الجلديات، المنظفات، هذا ما حرك عجلة الصناعة لديهم بشكل كبير، ترافق ذلك مع إعادة توزيع الصناعات في أوروبا الغربية، حيث بدأت الدول الرأسمالية المتقدمة تركز على الصناعات العالية التكنولوجية و بدأت تخرج الشركات التي تحتاج إلى كثافة في الأيدي العاملة أو التي تلوث البيئة خارج حدودها، و كان لدولة الجار الشمالي نتيجة لملاصقتها لأوروبا حصة الأسد فيها، هذا التطور الكبير أدى إلى تراكم تدريجي للثروات و الغنى في أيدي التجار و الصناعيين في دولة الجار الشمالي، و وقتها كانت الأحزاب الليبرالية و القومية هي التي تحكم، جاءت الحركة الدينية و لعبت على تناقضات عدم وجود عدالة اجتماعية في توزيع هذه الثروات و عدم وجود تنمية متوازنة في مناطق البلاد المختلفة، فاستقطبت أصوات الناخبين و

حصلت على السلطة، و لكن الازدهار الاقتصادي الذي عاشه الشعب هناك كان في جزءه الأكبر يعود إلى العصور السابقة لوصول المتدينين للسلطة.

تكلم الأستاذ فايز و لكن بشكل أكثر هدوءً الأن:

-أنا لم أشأ أن أتوسع في الموضوع، و لكن السيد مهند استفزني، هل تعلمون يا سادة أن دولة الجار الشمالي ما زالت تعاني من تخلف فظيع في العديد من أريافها، أن التطور الكبير الذي يتحدثون عنه نعم موجود و لكن ليس في كل المناطق، هناك مناطق محرومة بل و شديدة التخلف، هل تعلمون أن الأقطاع ما زال موجوداً في العديد من مناطقها، أي نعم، ما زال لديهم أغوات يملكون كامل أراضي قرية ما و كل سكان القرية يعملون أجراء لديهم، في دولتنا و رغم كل الجوانب السلبية التي عانينا و نعاني منها، طُبق الإصلاح الزراعي و وزعت الأراضي على الفلاحين الفقراء، هناك لم يتم شيء من هذا، في دولتنا الكهرباء و التعليم المجاني و الهاتف و الماء و الطرقات المعبدة وصلت إلى أبعد القرى، أما لديهم و رغم كل الغنى، ما زالت الأرياف تعاني من تخلف كبير و نقص في

الخدمات الأساسية.
هنا تحمس سامر للدخول في النقاش:
-و تأكيداً لكلامك يا أستاذ فايز فأن أكثر المناطق تخلفاً لديهم و أقلها تنمية هي المناطق التي تسكنها قوميتي هناك، و رغم أن عددنا يبلغ ما نسبته ربع سكان البلاد، فهم لم يعطوننا حقوقنا القومية و للأسف الاضطهاد الذي يعانيه أبناء قوميتي في دولة الجار الشمالي ـ و يجب أن نقر بذلك ـ هو أكثر بكثير من الاضطهاد الذي مارسه النظام علينا في هذه البلاد.
و لكن و من جهة أخرى، يمكن لنا أن نستفيد من الدعم الذي يقدمه الجار الشمالي لثورتنا و نعتبر ذلك بداية صفحة جديدة في علاقتنا معه، و أما القضايا الخلافية فسنتفاوض معهم لحلها تدريجياً، المهم أن يكون النظام قد رحل.
ضحك المسرحي المخضرم فايز ضحكة استهزاء و كأنه على خشبة المسرح، و قال:
-ألم تسمع يا أستاذ بالمثل الذي يقول كالمستجير من النار بالرمضاء، أو سأذكرك بمثل قديم كانت جدتي

رحمها اللّه تردده كثيراً، عدو جدك ما بيودك...
كان المحامي صالح يساير الأستاذ فايز كثيراً حيث أنه كان مقتنعاً أن باستطاعة فايز أن يفتح له الباب لكي يتم قبول انتاج أحد السيناريوهات التي كتبها، و لذى فقد أثنى على كلام الأستاذ فايز قائلاً:

-إن صديقي الخبير الاقتصادي الذي حدثتكم عنه، تحدث كذلك عن أن الجار الشمالي من مصلحته تدمير الصناعة في بلدنا خاصة الصناعات النسيجية و التي تشتهر عاصمة الشمال لدينا بها، فصناعاتنا بدأت تتطور كثيراً و أصبحت صناعة الأقمشة و المنسوجات و الألبسة و الأحذية لدينا تنافس صناعاتهم و تضغط على صادراتهم، و حيث أنه لدينا إنتاج للمواد الأولية اللازمة لهذه الصناعات من قطن و صوف و جلود فهم يريدوننا ان نصدر لهم هذه المواد الأولية و نستورد المنتجات الجاهزة منهم، و قال كذلك أن هناك تقارير دولية تؤكد أن المعارضة المسلحة تفكك المعامل الحديثة الموجودة في أرياف عاصمة الشمال و تشحنها عبر الحدود إلى الجار الشمالي و يبيعونها بعُشر ثمنها للتجار هناك.

ضحك الأستاذ فايز:

-يا صديقي، هذه ليست بحاجة إلى خبيرك الاقتصادي، إن رئيس غرفة الصناعة في عاصمتنا الشمالية و هو شخص وطني بامتياز، قد ملأ الدنيا صراخاً و عويلاً أن العصابات المسلحة قد فككت مئات المعامل و باعتها عبر الحدود ، و هو يهدد و يتوعد أن يقاضي دولة الجار الشمالي لسماحها بهكذا أفعال.

كسر الأصنام

الجزء الثاني

بعد عدة أشهر من السهرة التي جمعت سامر بأصدقائه الجدد في عيادة الدكتور سعيد أخذت الأمور في المدينة على النهر العظيم تأخذ منحاً خطيراً ، تم شراء ولاء العديد من زعماء العشائر في المنطقة من خلال المال الوفير القادم من دول النفط، و حيث أن رئيس فرع الحزب في المحافظة كان ابن أحد هذه العشائر فقد وجه كامل السلاح الذي خصصته الدولة لتسليح لجان شعبية لتأمين حماية منشآت المحافظة إلى أبناء عشيرته بحيث أصبحوا جلهم مسلحين، من جهة ثانية تم شراء ذمة رئيس فرع الأمن السياسي و المحافظ و غيرهم من الضباط و المسؤولين.

كانت التقارير التي تصل إلى قيادة الدولة غير مطمئنة فحواجز المسلحين انتشرت على جميع مشارف المدينة و أصبحت أرياف المدينة خارج سيطرة الدولة، إلا أن رئيس فرع الحزب و المحافظ و بعض الضباط الأمنين الكبار كانوا يرسلون التقارير المطمئنة أنه لا شيء خطير يهدد

المدينة ذاتها و أن الأمور فيها تحت السيطرة تماماً، عندما أصبحت الأمور مختمرة تماماً للمعارضة المسلحة و عندما ضمنوا سيطرتهم على كافة المفاصل المهمة داخل المدينة قاموا بإقتحام المدينة و السيطرة عليها.

دخل المسلحون إلى مبنى قيادة فرع الحزب و أصطحبوا معهم رئيس فرع الحزب و المحافظ دون أية مقاومة.

المقاومة الوحيد التي واجهتهم كانت من بعض الحواجز المنفردة و بعض الثكنات العسكرية القليلة في المدينة.

أحد هذه الحواجز التي قاومت المسلحين كان حاجز الرقيب يوسف، و الذي رفض مرور المسلحين من أمام حاجزه حتى بعد أن اتصل به رئيس فرع الحزب و أمره أن لا يقاوم حيث أن المقاومة لا جدوى منها و المدينة قد سقطت في أيدي المعارضة و قضي الأمر.

تحصن يوسف و عناصره الثمانية في حاجزهم و قطعوا الطريق على المسلحين للتقدم عبر محورهم، خلالها حاول يوسف التواصل مع قياداته الأمنية دون جدوى.

حاولت مجموعة من المسلحين مزودين بسيارة بيك أب مركب على ظهرها رشاش متوسط ان تقتحم الحاجز،

فقام يوسف بالتظاهر بالانسحاب من الحاجز و التف مع عناصره على المجموعة المكونة من حوالي العشرة أشخاص من المسلحين، باغتوا المسلحين بالنيران من الجانبين، أطلق يوسف من بندقيته رصاصاً متفجراً على خزان بنزين مركبة المسلحين مما أدى لانفجارها، على أثر ذلك هرب من تبقى من المسلحين تاركين عدة جثث و مركبة تحترق.

تراجع يوسف و عناصره إلى الحاجز و لكنه لم يتمكن من الصمود طويلاً، فالمسلحين كانوا قد دخلوا مبنى الحزب و أخذوا يمطرون يوسف و عناصره بالنيران من نوافذ البناء العالي المطل على الحاجز من الخلف.

انسحبت المجموعة بعد أن قتل عنصران و أصيب يوسف برصاصة اخترقت قدميه فلم يعد يقدر أن يمشي، فحمله اثنان من رفاقه، و ساروا به عبر الأزقة إلى رحبة عسكرية صغيرة تقع خلف مبنى الحزب، هناك استقلوا شاحنة عسكرية و انطلقوا بها بأقصى سرعة خارج المدينة.

كان هناك معسكر كبير للجيش به قيادة أحدى الفرق العسكرية في البلاد يقع شمالي المدينة قصده يوسف و

رفاقه، لكن بعد تجاوزهم مشارف المدينة تعرضت شاحنتهم إلى رصاص القناصين فقتل السائق و انقلبت الشاحنة.

من تبقى من العناصر ظنوا أن يوسف قد قتل حيث أن الدماء كانت تغطيه و كان فاقداً للوعي على الكرسي الأمامي للشاحنة المنقلبة بجانب السائق الميت، بالنظر إلى حالة الهلع و الخوف التي كان يعاني منها العناصر المتبقون، لم يتأكدوا من حالة يوسف، فقد أسعفهم الحظ بمرور شاحنة عسكرية أخرى كانت تسابق الريح هاربة من المدينة باتجاه المعسكر فاستقلوا الشاحنة و اختفوا في غمامة من الرمل و الغبار.

أفاق يوسف بعد عدة ساعات كان الوقت قد أصبح يميل باتجاه الغروب، بصعوبة أخرج نفسه من خلال الزجاج المكسور للشاحنة المنقلبة، تفحص سلاحه كانت بارودته الروسية و مخازنه و قنابله ما زالت كلها في مكانها، و كذلك قربة الماء العسكرية و التي أخذ يشرب منها حتى أفرغها بالكامل، كان الألم يضغط عليه بثقل كبير و حاول جاهداً كي لا يفقد وعيه مجدداً، أصلح الضماد،

كان النزف شبه متوقف و كانت هذه بادرة جيدة.

حاول أن ينهض و يتكأ على بندقيته لكنه لم يتمكن، جلس و نظر حوله كان على بعد عدة عشرات الأمتار منه بناء صغير غير مكتمل، قد يكون بيتاً ريفياً بدء به صاحبه و لكنه لم يكمله، قرر أن يختبئ به، زحف في رحلة لم تتجاوز الثلاثين متراً أحسها أنها كانت في ثلاثين سنة.

عندما وصل إلى داخل البيت أغمي عليه مجدداً، لم يعرف يوسف تماماً كم مضى من الوقت و هو مغماً عليه، عندما أستفاق كانت الدنيا ليلٌ.

زحف باتجاه عتبة الباب و أتخذها متراساً له و أخذ يراقب الطريق و أضواء المدينة التي كانت تبعد عدة كيلومترات.

في تلك الأثناء جاءت سيارة دفع رباعي بها أربعة مسلحين ترجلوا و أخدوا يتفحصون الشاحنة المنقلبة، اطلقوا عدة رصاصات على جثة السائق ليتأكدوا أنه ميت، جالوا قليلا في المنطقة لم يلاحظوا أثار لأي أحد أخر فاستقلوا مركبتهم و رجعوا ادراجهم باتجاه المدينة التي باتت تحت سيطرتهم الأن.

كان يوسف الأن في وحشة و ضياع لا حدود لها، فالألم الذي لا يطاق كان يضغط على رأسه، كما أنه كان لا يعرف ماذا يفعل، فهو مصاب جريح لا يقدر سوى أن يزحف، وهو في عرض الصحراء يفصله أكثر من عشرة كيلومترات عن أقرب قطعة عسكرية و يحيط به المسلحون.

فجأة تذكر يوسف جهازه الخليوي، تذكره لأن التغطية كانت شبه معدومة الأيام السابقة و لم يكن يتمكن من إجراء أية اتصالات من داخل المدينة، أخرج جهاز الهاتف الخليوي، لمفاجأته كان الهاتف ما يزال يعمل و كان به تغطية، إن المنطقة التي انقلبت بها الشاحنة كانت مرتفعة قليلاً و يبدوا أنه بالقرب كان هناك برج اتصالات ما زال يعمل فتمكن يوسف من إجراء المكالمة.

اول من خطر على بال يوسف كان أخوه الأكبر اسماعيل، كان اسماعيل بمثابة الأب ليوسف فقد كان يفصل بينهما عشرين سنة، و اسماعيل هو من ربى يوسف بعد الوفاة المبكرة لوالدهما، كان اسماعيل مهندس اتصالات، و رئيس مقسم الهاتف في مدينتهم الساحلية

الجميلة.

رن الهاتف عدة رنات ثم جاء صوت اسماعيل متقطعا من السماعة:

-يوسف كيفك .... طمني عنك... انت بخير..

-أخي أنا بخير لكني مصاب..

-أين أنت، ماذا حصل لديكم في المدينة أخباركم مقطوعة عنا منذ يومين، و المعارضة المسلحة تقول أنها سيطرت على المدينة، الجهات الرسمية لا يصدر منها أي تعليق، لقد جننا و نحن نحاول أن نعرف أخباراً عنك، أنت أين في مشفى أم أين؟

-لا يا أخي لست في مشفى، حاول أن تتصل بأحد الضباط من قيادات الفرقة العسكرية الموجودة شمال المدينة انا مصاب في أول الطريق و اختبئ في بيت مهجور على قارعة الطريق..

-يا إلهي يا يوسف، أصمد يا أخي سأقلب الدنيا لكي يأتوا و ينقذوك ، لا تيأس سأكلمك بعد قليل...

طوال الليل حاول اسماعيل أن يتصل بأي ضابط في الفرقة، لكن الأمور كانت في فوضى لا توصف، كانت

القيادات العسكرية لا تعرف ما هو الوضع تماماً في المدينة، و لم تسمح لأي قوات عسكرية بالخروج خارج مقرات قيادة الفرقة، حيث كانت هناك مخاطر لوجود كمائن على الطرقات.

اتصل اسماعيل بيوسف عدة مرات و هو يحاول ان يشجعه أن يصمد، في هذه الأثناء ربما بصدفة ما، قرر المسلحون تمشيط المنطقة التي كان يختبئ بها يوسف، و على الأرجح لم يكن هناك صدفة، فالسفينة الحربية الحديثة المختصة بالتجسس والتابعة لأحدى الدول الأوروبية، كانت مرابطة قبالة سواحل أقدم بلاد الله منذ أشهر وكانت تلتقط كافة المكالمات الخليوية و الأرضية و ترسل المعلومات المهمة لقيادات المعارضة المسلحة.

عندما اقترب المسلحون من البيت المهجور الذي كان يختبئ به الرقيب يوسف، استجمع الرقيب آخر قواه الخائرة بفعل فقدان كمية كبيرة من الدم و زحف إلى داخل البيت و اتصل بإسماعيل:

-سلامي لكم جميعاً، المسلحون أصبحوا حولي و سيدخلون البيت قريباً..

-ماذا ستفعل يا يوسف..

-معي قنبلتان دفاعيتان يا أخي لا تقلق علي، قبل يدي والدتنا عني.

ثم أقفل الخط، بعد لحظات دخل عدد من المسلحين إلى البيت المهجور، دوى انفجار ضخم و تصاعد الدخان من باب و نوافذ البيت المهجور..



في صبيحة سقوط المدينة في أيدي المعارضة المسلحة، التقى سامر مجموعة من المعارضين المسلحين و الذين اصطحبوه إلى قائد أحد الألوية المسلحة و الذي سيطر على اجزاء واسعة من المدينة، عرضوا عليه العمل معهم فانخرط سامر في العمل بصفته الناطق الإعلامي باسم هذا اللواء.

حاول باقي أصدقاءه كذلك أن يوجدوا لهم أدوار مختلفة في العهد الجديد كل حسب ميوله، فسعيد تطوع للعمل في مشفى ميداني للمعارضة و كذلك مهند، حتى وفاء تطوعت للعمل كممرضة معهم.

لكن الأمور لم تكن بوضوح تام، فبعد فترة بدأت تظهر خلافات حادة بين التنظيمات المسلحة التي دخلت المدينة، ففي البداية كانت الغلبة للتنظيمات العسكرية المدعومة من الجيش المعارض ذي الصبغة المدنية نوعا ما، و معه بعض التشكيلات الدينية التي كانت تتبع لمجلس المعارضة و الذي مقره دولة الجار الشمالي، إلا أنه و بعد فترة انتشرت مجموعات مسلحة دينية أكثر تطرفاً كان تمويلها و عقيدتها مستمدة من مال النفط، شُكلت خلايا نائمة للدولة الدينية و بعد عدة أشهر سقطت المدينة في أيدي أنصارها بعد قتال عنيف مع الألوية المعارضة و التي احتلت المدينة أول الأمر.

للمفارقة كان تعامل أنصار الدولة الدينية مع المعارضين المسلحين و الذين كانوا يقاتلون معهم النظام في الأمس، أكثر تشدداً حتى من تعاملهم مع جنود النظام و الذين كان يتم الاكتفاء بإعدامهم سريعاً و أحياناً تعليق رؤوسهم في أماكن عامة، بينما من واجههم من تشكيلات المعارضة فقد قتلوا كل من أمسكوه منهم بعد تعذيبه، بعضهم صلبوه و عرضوه في الساحات، كما

اغتصبوا نسائهم و بناتهم و اعتبروهم سبايا، فجروا بيوتهم، قتلوا جميع الرجال في عائلاتهم، قتلوا حتى أولادهم..

بعض المحظوظين من المعارضة و الذين لم يبايعوا الدولة الدينية لم يتم قتلهم مباشرة، ربما لأنهم لم يشتركوا في القتال المباشر أو ربما لأسباب أخرى، كان من بين هؤلاء المحظوظين سامر و الذي أودع سجن الدولة الدينية..

البعض من سكان المدينة ركبوا الموجة الجديدة وكان منهم الطبيب مهند، و بعضهم أثر الانزواء كسعيد و وفاء و لكن ذلك لم يكن سبباً في نجاتهم من الأذى.

ففي صبيحة أحد الأيام دخل مجموعة من رجال الدولة الدينية و كانوا كعادتهم ملثمين إلى عيادة الطبيب سعيد، بدؤوا بتكسير التماثيل و اللوحات في العيادة و كل ما طالته أيديهم، كانوا يكسرون بأنفسهم ثم أمروا سعيد أن يكسر التماثيل بيده، عندما سألهم لماذا؟ جاوبه زعيمهم، و الذي كان كاشفاً وجهه ، ملتحيا بلحية كثة كثيفة و حالقاً لشاربيه:

-أتسأل يا جاهل لماذا؟ أولست مطلعاً على دينك يا هذا؟

كيف تعالج الناس و أنت لا تعرف أبسط تعاليم الدين؟
ثم جره من شعره باتجاه أحد التمائيل و نهره:
-يالله أكسره قبحك الله، سيأتي يوم الحساب فتشكرنا على ما قمنا به معك، سيسألك ربك يوم الحساب : هل أنت من تجرأت على صنع هذه التماثيل؟ و عندها لن يمكنك الكذب، ستقول : نعم، سيقول لك رب العالمين أنفخ فيها الروح إذاً... لن تقدر طبعاً، و عندها سيكون مصيرك الهلاك و العذاب الدائم في جهنم، اكسر أكسر بقوة حطم كل قطعة حتى يغفر الله لك..
كان سعيد لا يعرف حينها هل هو في الواقع أم في كابوس مخيف و غريب، عندما أمسك أحد المسلحين تمثالاً نصفياً لامرأة نصف عارية كان يعتبره سعيد أجمل ما نحته، شيء ما دفع سعيد لكي يدفع المسلح بعيداً عن التمثال و يحضن التمثال بقوة، لكن باقي المسلحين عاجلوه بالضربات بأعقاب بنادقهم فسقط و الدم يسيل من جبهته، بعدها ركلوه و داسوا عليه، تابع سعيد مشاهدة منظر تدمير مرسمه و منحوتاته و هو شبه مغمى عليه و مرمي على الأرض، بعد أن قاموا بتكسير أغلب ما في العيادة و

المرسم قام عدد من المسلحين بالتبول على حطام التماثيل، لم يفهم سعيد ما الغاية من التبول على حطام التماثيل بعد تكسيرها ، هل كان هذا سيمنحهم مزيداً من الثواب و الأجر عند اللّه؟

عندما انتهوا من مهمتهم المقدسة جروا سعيداً معهم و رموه في أحد سياراتهم و انصرفوا إلى أحد مقراتهم.



كان سامر قد أمضى عدة أسابيع في المعتقل و الذي كان في أحد المزارع خارج المدينة ، خلالها دخل اناس كثيرون إلى المعتقل ، أغلبهم تم إعدامهم و بعض المحظوظين و منهم سامر ما زالوا في انتظار المجهول.

في أحد الأيام جلبوا أحد الأشخاص و رموه في أرض المعتقل، عندما دقق سامر في وجه المعتقل الجديد عرف الطبيب سعيد ، اندفع إليه ورفع رأسه:

-دكتور سعيد ، لماذا فعلوا بك هذا؟

ابتسم سعيد ابتسامة ضعيفة :

-أه أنت هنا كذلك يا سامر...

-نعم أنا هنا منذ أسابيع، لكن لماذا اعتقلوك، يا اللّه أنك تنزف..

قطع سامر قطعة قماش من سترته و حاول أن يضمد رأس سعيد قدر الإمكان، ثم جره إلى الزاوية، اجلسه، جلب له شربة ماء، شربه سعيد بنهم، عندها استعاد سعيد بعضاً من قوته و قال:

-سألتني لماذا اعتقلوني... اعتقلوني لأنني صانع أصنام..

فهم سامر الموضوع، تنهد:

-ما هذه الحالة التي وصلنا إليها، أين ثورتنا و أحلامنا المشرقة، أهذا ما كنا نناضل من أجله؟

-نعم يا صديقي سامر هذا ما وصلنا إليه، أليست الثورة دائماً تأكل أبنائها؟

-أجل للأسف كنا نستخدم هذه المقولة بوصفها حالة من التاريخ و لكننا اليوم نعيشها بأنفسنا.

أصابت حالة من النشاط المحموم الطبيب سعيد، حالة تشبه حالات النشاط التي يصاب بها البعض ما قبل الانهيار الأخير نحو هوة الموت.

عدل جلسته مستنداً اكثر على الحائط و رافعاً رأسه:

-لا أعرف يا سامر هل كانت أحلامنا محقة و هل كانت طموحاتنا مشروعة، اليوم أحس أننا كنا طوباويين و حالمين و كنا بعيدين عن الواقع، من السهل أن تنظّر، تبني النظريات و التصورات المستقبلية الزاهية، و من الصعب أن تنفذ ما تحلم به على أرض الواقع، من السهل أن ننتقد الحكومة و النظام و لكن هل بإمكاننا التصرف و الوصول إلى نتائج أفضل لو كنا مكانهم؟

-أنت محق في شكوكك، لكن نحن لم نصل إلى السلطة لنلوم أنفسنا، و أنت محق ثورتنا سرقت، سرقها المتدينون و هم المسؤولون عن انكسار أحلامنا.

- ألسنا نحن من جمّلنا صورتهم؟ ألسنا نحن من قال أنهم ليسوا بهذا السوء الذي يظنه البعض؟ ألسنا نحن و دول الغرب الداعمة لنا من ميز بين متدينين معتدلين و متطرفين، ليتبين أن أكثرهم اعتدالاً هو متطرف، ألم نستخدمهم رأس حربة في معاركنا ضد النظام، ألم يكن كل هجوم لنا يبدأ بعملية انتحارية يقوم بها أحد المتدينين، كنا نظن أننا سنستخدمهم لكي ننتصر على النظام، و

بعد أن ننتصر سنحتويهم بطريقة أو بأخرى...
تنهد سامر و ثم قال بتهكم:

-يبدوا أنهم هم من احتونا بطريقة أو بأخرى..

-ما بني على باطل يبقى باطلاً، نحن أخطأنا منذ البداية و الآن ندفع ثمن أخطائنا، تماماً كما قصة أحد قادة المعارضة الميدانيين، ذاك العقيد الشجاع، الذي انشق عن النظام و قاد قوات جيش المعارضة في أحد جبهات الشمال، عندما سيطر على أحد المواقع المهمة للنظام بعد معركة طاحنة، دخل يتفقد الموقع فوجد جثث زملائه الضباط الذين خدم معهم سنين طويلة مرمية في أنحاء الموقع، وجد جثث المجندين الذين كان أشرف على تدريبهم مرمية، مقطعة و محروقة، معفرة بالدماء و التراب، فبكى حرقة، و بعد يومين اغتاله مسلحون مجهولون، كان يجب أن نعتبر من تلك الحادثة و غيرها من الحوادث.

-صحيح، أصبح واضحاً أن المتدينين هم من يستخدمنا مطية لمشاريعهم و نحن كنا نظن بغبائنا العكس..

- أتذكر يا سامر أنت من كان يقول أن المتدينين ليسوا كلهم مثل بعضهم، بعضهم سيء و بعضهم مقبول..

-إذا أردت أكثر من ذلك، كنت اقف مع بعض المتدينين ضد بعضهم الاخر، كنت أقول أن المتدينين الذين يقاتلون مع المعارضة المسلحة و يأتمرون بأوامر قيادة المعارضة الموجودة في دولة الجار الشمالي هم معتدلون و خيرون، و أما أنصار الدولة الدينية و الذين كانوا يقاتلون النظام كذلك، و لكنهم كانوا يعملون لحسابهم و ليس لحساب المعارضة، فهم متطرفون، بل و هم صنيعة للنظام، كنت اتهم النظام بأنه هو من صنع حركة الدولة الدينية لكي يشوه صورة المعارضة المسلحة..

-و الأن هل تعتقد أن الدولة الدينية هي صنيعة النظام؟

-ربما ليست صنيعته، لكنه استفاد منها، و لربما سيتعاون معها ليقضوا على المعارضة العلمانية و بعدها ستحدث المعركة الفاصلة بينهما..

-إذاً كان النظام أذكى مننا، كنا نظن أننا نستخدم المتدينين للقضاء على النظام، و هو كان يلعب اللعبة ذاتها و لكن مع الدولة الدينية..

-ليس الفكرة أنه أذكى، أنها اللعبة نفسها، اللعب مع الشيطان، لا أحد يعرف نتيجتها مسبقاً، لكن من الواضح

أن النظام يريد أن يضع الغرب في موقع من يحتاجه ، لأن البديل هو أشد سوءاً بألف مرة من النظام..

في الصباح جاء المسلحون و اقتادوا الطبيب سعيد إلى المحكمة الشرعية التابعة لهم، بعد فترة سمع المسجونون عدة رشقات من الرصاص، و بعدها لم يرى سامر الطبيب سعيد أبداً.

.

الفصل الثالث

الوطن و المنفى

مقدمة الفصل الثالث

في قديم الزمان كان هناك مدينة كثرت الخطايا و الذنوب بين أهلها ، إنتقى الله أحد الصالحين من أهلها و أمره أن يجهز سفينة ينجو بها و أهل بيته و عدد من الكائنات الأخرى من الطوفان الهائل الذي سيعاقب به أهل هذه المدينة.

كان لدى الرجل أبن بار، ساعد أباه في بناء السفينة ساعده في تحميل الكائنات كافة إلى السفينة ، و عندما بدأ المطر و بدأ الطوفان ودع الأبن أباه و ترك السفينة قائلاً :

يا ابتي أنا لم أعصي لك أمراً في حياتي، لكني لا أستطيع أن أترك مدينتي تغرق، سأضع يدي في يد أقراني ، أصدقاء طفولتي، سنبني السدود و سنحاول أن نقف في وجه الطوفان من أن يجتاح شوارع مدينتي و أماكني التي أحببت، ابحر يا أبي في سلام، فأنا لن أترك وطني.

الموقع العسكري

كان كمال قد أنهى الدورة العسكرية المكثفة للضباط الجامعيين، كان ترتيبه الأول فتخرج وفق للتقاليد العسكرية برتبة ملازم أول زيادة برتبة عن زملائه الذين تخرجوا برتبة ملازم.

أمضى كمال فترة الدورة العسكرية و هو يرهق نفسه بالتمارين الرياضية المتواصلة لكي لا يفكر في شيء آخر ابداً، حاول أن يستزيد قدر الإمكان بالمعلومات العسكرية المختصرة التي تم تلقينهم إياها كما و حاول أن يتقن استخدام مختلف أنواع الأسلحة التي درب عليها.

عند انتهاء الدورة التحق كمال بمكان خدمته في الإدارة المركزية لحسابات الجيش، في أول يوم من خدمته في المكان الجديد استلم خليل مسدسه الحربي من الإدارة ثم مباشرة قدم طلب تحويله إلى المهام الميدانية.

في تلك الفترة كان العمل الميداني اختيارياً، من كان يرغب من ضباط الإدارات أن يلتحق بالمهام القتالية كان يقدم طلباً بذلك، و كان هناك مجموعات قتالية من

الإدارات موزعة على الجبهات العسكرية التي ملئت طول البلاد و عرضها حيث بلغت في بعض الأيام أكثر من ثلاثمئة جبهة مشتعلة.

في اليوم التالي أقلت شاحنة عسكرية كمال مع بعض المجندين إلى مكان تواجد المجموعة القتالية التي حول للخدمة فيها.

كانت المجموعة تتمركز في أحد ضواحي العاصمة، في تلك الأيام حاصرت القوات الحكومية المسلحين في المناطق الزراعية الخصبة المحيطة بالعاصمة و بدأت تضيق الخناق عليهم تدريجياً، و مع ذلك كانت الرقعة التي سيطر عليها المسلحون في ريف العاصمة كبيرة جداً و كانت مليئة بالقرى و البلدات المؤيدة لهم، و كان حصار هكذا منطقة حصاراً مطبقاً صعباً للغاية، و كانت عمليات التسلل تتم باستمرار، من المنطقة المحاصرة و إليها، كانت طرقات الامداد مفتوحة عبر الصحراء إلى دول الجوار، و التي كانت سخية جداً بدعم المسلحين بأمر من السيد العالمي.

كانت قوات المسلحين المعارضين ليست بالقليلة و كانوا

ما زالوا يشكلون تهديداً حقيقياً للعاصمة.
تفاجأ كمال بما رآه في الموقع، لكنه عاهد نفسه أن لا يستغرب ابدأ و ان يمضي في طريقه الذي اختاره.
كان الموقع عبارة عن مجموعة من الحواجز العسكرية القليلة العدد و بسيطة التحصين المتمركزة في عدد من الأبنية على أطراف البساتين، كان الجنود عدة عشرات، مسلحين بالأسلحة الخفيفة و المتوسطة و لديهم بضع عربات مدرعة و بضع دبابات.
عندما وصل كمال إلى البناء الذي يتمركز فيه مقر قيادة الموقع أعلمه أحد المساعدين هناك أن المقدم رعد قائد الموقع غير موجود و قال له أن يذهب و يسأل عن الرائد رياض، عندما مشى كمال بالاتجاه الذي أشار إليه المساعد وجد منظراً غريباً، شخص نحيف يضع نظارة طبية بعدسات سميكة لا يزيد وزنه عن الخمسين كيلوغراماً و يرتدي ثياباً عسكرية قديمة دون رتب، قد أخذ منها طول الاستخدام و عوامل الجو ألوانها التي كانت مموهة يوماً و ذي ذقن شائبة غير مشذبة، كان يعد عدد مرات تمرين الثابت لرجل ارتدى فقط بنطالاً

عسكرياً كاشفاً عن بنية رياضية ممتازة و وشم صورة نسر الجمهورية ما بين كتفيه العريضتين.

عندما انتهى الرجل من تنفيذ التمرين للمرة السادسة عشر قفز إلى الأرض، القى كمال السلام عليهما و سأل أين يجد الرائد رياض، ابتسم الرجل النحيف قائلاً:

-وصلت أيها الملازم الأول.

عرفه كمال على نفسه ثم قفز ممسكاً بالعارضة الحديدية و بدأ ينفذ تمرين الثابت وصل إلى العدة الخامسة عشرة إلا أنه لم يتمكن من السادسة عشرة، قفز إلى الأرض و هو يبتسم قائلاً:

- المرة القادمة سأنجز الستة عشر مرة.

توطدت صداقة متينة بعدها بين الثلاثة رغم الاختلاف في طباعهم، الرائد رياض كان ضابطاً مغضوباً عليه تم تكسير رتبته مرتين و بدلاً من أن يكون برتبة عقيد كان برتبة رائد، الشاب الرياضي كان مساعداً أسمه محمد إلا أن الجميع كانوا ينادونه النسر و سبب تسميته بذلك الاسم وشم نسر الجمهورية على جسده، عندما سأله كمال مرة لماذا وشم نسر الجمهورية على جسده مسك

النسر قطعة فحم و كتب بها على الجدار:

قدري أن أرسم نسراً، اسميه الوطن
إن عشنا سوية، أو متنا تقاسمنا الكفن

عاش الثلاثة في غرفة شبه مهدمة لا تبعد عن المواقع الأمامية سوى عشرات الأمتار، كان قائد الموقع المقدم رعد قليل التواجد في الموقع، حيث فهم كمال أنه من الضباط المدعومين من الأعلى، كما أنه كان له رجال في الموقع لا يأتمرون إلا بأمره، كان القائد الفعلي للعمليات القتالية اليومية هو الرائد رياض، رجال المقدم رعد كانوا يمسكون الحاجز العسكري الذي كان يتم فتحه أو إغلاقه إلى المناطق المحاصرة حسب تعليمات كان يصدرها المقدم لرجاله، و كانت الأحاديث تدور عن تجاوزات عديدة و ممنهجة و خوات و غير ذلك من الأمور تتم على الحاجز، إلا أن الرائد رياض كان لا يتدخل في شؤون الحاجز، كان يعتبر نفسه جندياً يخدم وطنه و ليس لصاً أو جابياً لأحد، و فهم كمال بسرعة أن العلاقة

متوترة بين الرائد رياض و قائد الموقع.
رغم البنية النحيفة للرائد رياض فقد كان مقاتلاً محنكاً و كان يلقب بملك الكمائن، كان يقوم مع النسر بإعداد كمائن محكمة كل فترة لمجموعات الامداد التابعة للمعارضة، و كان قد حقق عدة ضربات موجعة للمعارضة راح بها عشرات المسلحين المعارضين.
لم يكن كمال يتوقع أبداً أن يصادف هكذا أصدقاء أو أن يعيش معهم أجمل أيام حياته و هو على خط النار بين الحياة و الموت، حيث كانت مواقعهم تحمي أحد القيادات العسكرية المهمة خلفهم، و بموضع هذه القيادة تمركزت قوات المدفعية البعيدة المدى و التي كانت تقصف كامل المنطقة التي تسيطر عليها المعارضة، فكانت هجمات المعارضة لا تنتهي على محورهم.
و مع ذلك كانت أمسياتهم تدور بها أحاديث عديدة، كان النسر يحفظ دواوين بأكملها من الشعر الفصيح كما و كان ينظم الشعر الشعبي، أما الرائد فكان كثير المطالعة في كتب التاريخ و الفلسفة، و كثيراً ما دارت بين الثلاثة النقاشات الحامية حتى ساعات الفجر، كان

رفيقهم في هذه الأمسيات الشاي على الفحم، و المتة، و بعض الطعام العسكري المتواضع.

بدأ كمال يشارك تدريجياً في الكمائن التي كان يعدها الرائد رياض، بعد فترة بدأ هو و النسر يعدان الكمائن بمفردهما، و في أحد الأيام انطلق الاثنان و معهما عدة جنود إلى منطقة في الصحراء كانا يشتبهان أنها معبر للمعارضة، زرعا عدد من الألغام في بطن أحد الأودية و الذي كان ممراً طبيعياً وحيداً بين تلين في الصحراء، ثم تمركزوا بشكل شديد التمويه في أحد التلال، ثلاثة أيام لم يناموا بها إلا سويعات، لم يشعلوا النار، كانوا قد بدؤوا يفقدون الأمل بتحقيق أي صيد، عندما في فجر اليوم الرابع لاحظوا سيارتين بأضواء خافتة تسيران في الصحراء باتجاههم، عندما بلغت السيارتان موضع الألغام قاموا بتفجيرها دفعة واحدة ثم أمطروا المسلحين بالنيران الكثيفة، كانت الحصيلة صيدا ثميناً، سيارتين ذات دفع رباعي محطمتين بالكامل و ثمانية مسلحين قتلى من دول عربية مختلفة، معهم جوازات سفرهم و ثبوتيات أخرى و سلاح غربي، عندما جلبوا غنائمهم للرائد ابتسم قائلاً:

-الآن يمكنني أن أموت و أنا مطمئن، إذا تمكن الكلاب من قتلي فهناك من سيحمل الراية بعدي..

لقاء على خط النار

كان عبد الرحمن في صبيحة هذا اليوم يشعر بثقل في صدره، لم يكن يعرف له سبباً، فالأمور كانت على ما يرام، كانت أسهمه بازدياد في صفوف المعارضين المسلحين، كما و كان عمه شيخ الجامع قد وعده قريباً بترتيب لقاء له مع عدد من القادمين من بلاد النفط لكي يناقشوا تزويدهم بالأسلحة الغربية الحديثة، كما و كان هناك مشاريع كبيرة أخرى بإنتظاره لكن عمه أعلمه أنه سيعرفها في حينه.

كان قد بات ليلته في منزل عمه الشيخ و حيث أن زوجته الصغيرة كانت في أشهر الحمل الأخيرة، فقد أطمئن عليها و تركها تزور أهلها بضعة أيام ، صلى الفجر ، تناول فطوراً خفيفاً ثم انطلق يتفقد مواقع مقاتليه على خطوط التماس.

حوالي الساعة الثامنة صباحا شاهد طائرة مقاتلة حكومية تجوب أجواء المنطقة، أصدر امراً لمقاتليه عبر جهاز اللاسلكي بالتصدي لها، أمطروها بوابل من

الرصاص المتفجر من المضادات الأرضية التي بحوزتهم، إلا أن الطائرة كانت على ارتفاع عالي جداً لا تطالها مضاداتهم، تنهد عبد الرحمن لكنه طمئن نفسه بأن داعميهم قد وعدوهم بتزويدهم بالصواريخ المضادة للطائرات قريباً.

فجأة أغارت الطائرة بسرعة عالية جداً على هدف ما اطلقت صاروخين شديدي الانفجار، وصل صدى انفجارهما إلى مسامع عبد الرحمن، ثم ارتفعت مسرعة و غابت في الاتجاه الذي جاءت منه.

انقبض قلب عبد الرحمن، القصف كان باتجاه بلدته، استقل سيارة الدفع الرباعي مع حراسه و انطلق راجعا إلى بلدته، عندما وصل كان المشهد مرعباً، بدلا من بيت عمه الشيخ الملاصق للجامع كانت تبرز كتلة من الأنقاض كما و كان نصف الجامع مدمراً.

كان الدخان و الغبار ما زال يتصاعد من البيت المهدم و كانت بعض ألسنة اللهب تبرز هنا أو هناك.

ذهبت الغارة بالشيخ و بكامل عائلته و معهم زوجة عبد الرحمن و مولوده الذي لم يرى النور.

رأى عبد الرحمن في محيط المنزل عدة سيارات غريبة بعضها محترق و بعضها مصاب بأضرار متفاوتة، رأى أحد الحراس و الذي كان يتم تضميده، سأله:

-لمن هذه السيارات؟

-لا أعرف، هم أناس جاؤوا لزيارة شيخنا في الصباح، يبدو أنهم مهمون جداً، كان معهم سلاح و حرس...

فهم عبد الرحمن أن اجتماعاً مهماً كان يتم في منزل الشيخ و هؤلاء الزوار هم الذين كانوا مستهدفين بالغارة.

استقبل عبد الرحمن التعازي لمدة ثلاثة أيام و في اليوم الرابع اطلق هجوماً كبيراً باتجاه المواقع الحكومية.

كان الهجوم يستهدف إحدى الإدارات العسكرية المهمة و التي تمركزت بها مدفعية الجيش الحكومي، انطلق الهجوم في الليل، حيث أراد عبد الرحمن أن يباغت القوات الحكومية.

في الخطبة القصيرة التي القاها عبد الرحمن على مقاتليه، أمر كل مقاتل ان يحمل سكينه معه، قال لهم أنهم سيذبحون كل جنود النظام الكافر و يستولون على غنائم و معدات عسكرية كثيرة في الموقع الحكومي، قال لهم

أن هذه المعركة هي معركة الثأر لدماء شيخهم، و أن من يستشهد بها له أجرٌ مضاعفٌ عند اللّه و حوريات الجنة بانتظاره، و وعد مقاتليه بمكافآت نقدية بعد انتصارهم، ثم أكد عليهم أن لا يرحموا أحداً من الجنود، و شدد أن يتم ذبح الأسرى و ليس قتلهم بالرصاص.

سارت الأمور في البداية حسب المخطط اقترب مقاتلوا المعارضة بهدوء من المواقع الحكومية، إلا أن أحد المقاتلين داس على لغمٍ أنفجر به، فتتبه الجنود الحكوميون و بدؤوا يطلقون النار من رشاشاتهم و مدافعهم باتجاه المهاجمين، كما أن بعض الكمائن المخفية فاجئت المهاجمين في طريقهم، كان المعركة تتم في الظلام الدامس و الذي لم يكن ينيره سوى لهيب الأسلحة، استمر مقاتلوا المعارضة بالتقدم رغم كثافة و شدة النيران، بعضهم تمكن من الوصول إلى تحصينات القوات الحكومية و الاشتباك مع الجنود هناك و قتل العديد منهم، كانت تساند المهاجمين عشرات المدافع الرشاشة الثقيلة و التي استقدموها على ظهر سيارات شاحنة، كما و انهارت عشرات قذائف الهاون و الصواريخ المختلفة على

المواقع الحكومية.

كان عبد الرحمن في طليعة المهاجمين و كاد يصل إلى الخنادق الأمامية للقوات الحكومية لولا أن شريطاً شائكاً أعترض تقدم مجموعته، عندما كان أحد حراسه يحاول أن يقطع الشريط الشائك بمقص مخصص لهذه الغاية، لاحظ رامي رشاش ثقيل من القوات الحكومية هذه الحركة فصوب نيران رشاشه الثقيل باتجاههم، كانت النيران قاتلة فسقط أربعة من المجموعة المهاجمة قتلى، بينهم اثنان من أخوة عبد الرحمن، و لم يبقى معه غير مقاتل واحد، حارسه الشخصي، رغم الغضب اللامتناهي و الذي كان يتملك عبد الرحمن فقد فهم أنه من الأفضل الأن أن ينسحب، حيث سيتكفل الزمن بإتاحة فرص أخرى للثأر...

انسحب عبد الرحمن بهدوء عبر أنقاض بعض الانشاءات البسيطة المحيطة بالموقع، أخذ يمينه لكي لا يتعرض لقذائف القوات الحكومية و التي بدأت تنهار على عمق دفاعات المعارضة، و بالأخص على القطاع الذي أنطلق منه الهجوم.

كانت الأرض التي كان ينسحب عبرها عبد الرحمن و حارسه أرضاً زراعية سابقاً، حرق لهيب الحرب أغلب الشجر و المزروعات بها، و لم يبقى غير بعض الثلوم في الأرض و التي كانت سواقي لري المزروعات، زحف عبد الرحمن و حارسه في قعر إحداها عدة مئات من الأمتار حتى أحسا نفسيهما في أمان نسبي فنهضا و هرولا باتجاه كتل الأبنية السوداء لأحدى البلدات التي كان يسيطر عليها المعارضون.

في هذه اللحظة أحس عبد الرحمن بألم يخترق ساقيه و يرميه أرضاً رغماً عنه.

❖❖❖❖❖

كان كمال مستلقياً على الأرض في كمينه يرصد بانتباه أحداث المعركة.

منذ مدة وكان تشكيلهم يقوم بكمائن ليلية باتجاه مواقع المعارضين، بدأ هذه التجربة النسر، فمنذ الشهر لاحظ النسر أنه ما أن تغيب الشمس حتى يتقدم المسلحون بكمائن متقدمة، و يمطرون المواقع الحكومية من

مسافات قريبة بنيران أسلحتهم الخفيفة و المتوسطة و قذائف الأر. بي . جي، تقدم النسر في أول تلك الليلة مع جنديين و اختبئ في أحد الأبنية المهدمة في المنطقة الفاصلة بين القوات الحكومية و المعارضة، بعد حوالي الساعة و في هدوء الليل سمع الثلاثة صوت احتكاك خفيف، بعد برهة لاحظوا ثلاثة كتل سوداء تزحف باتجاه البناء المهدم و الذي كانوا بداخله، بعد قليل دخل ثلاثة مسلحين إلى البناء، انتهى كل شيء خلال أقل من دقيقة، ثلاثة جثث للمسلحين مطعونين بالحراب، و رشاشان و قاذف أر. بي. جي غنائم النسر و رفيقيه، تم كل شيء دون إطلاق رصاصة واحدة.

ثابر التشكيل على تنفيذ الكمائن الليلية المتقدمة بعد هذه الحادثة، في هذه الليلة كانوا قد أعدوا كميناً مزدوجاً، في غرفة شبه مهدمة كانت فيما مضى على ما يبدوا غرفة بئر ماء زراعي اختبئ كمال، تكثر هكذا إنشاءات في بساتين هذه الأرياف حيث يعتمد لمزارعون على مياه الآبار في زراعتهم.

كان معه اثنان من الجنود، و كان إلى يساره في زريبة

شبه مهدمة النسر مع جنديين أخريين، كان كل من الكمينين يحمي ظهر الكمين الآخر.

بدأت المعركة في الربع الأول من الليل، شن المعارضون هجوماً قوياً على قوات الحكومة إلى اليسار من تشكيل كمال و رفاقه، كان الهجوم متوقعاً حيث كانت الأجواء مفعمة بالخطر منذ عدة أيام، فالتقارير الواردة من المناطق التي تسيطر عليها المعارضة كانت تؤكد قرب وقوع هجوم كبير على القوات الحكومية كرد على مقتل الطيران الحكومي لعدد من قادة المسلحين في إحدى الغارات.

كان الهدف الذي سيتوجه إليه الهجوم مجهولاً، و لذلك كان التوجس و الحذر يسيطر على جميع المواقع الحكومية.

عندما بدأ الهجوم إلى اليسار من موقع كمال فهم أن القيادة العسكرية الموجودة خلفهم هي المستهدفة بهذا الهجوم، و لكن التركيز الرئيسي للمهاجمين لم يكن من محورهم بل على قطاع الجبهة إلى يسارهم، لم يشترك كمال بإطلاق النار لعدة أسباب، أولاً كانت المسافة

بعيدة و في ظروف الليل ستكون نيرانهم قليلة الفاعلية، أما السبب الثاني فهو توجس كمال من أن يرسل المسلحون مؤازرة لتخفيف الضغط عن رفاقهم عبر محورهم، و لكي لا يكشفوا موقعهم استمر كمال و جنوده في كمينهم و هم يراقبون بحذر في كل الاتجاهات.

بعد عدة ساعات خفت حدة الهجوم و فهم كمال أن القوات الحكومية تمكنت من امتصاص زخم الهجوم، في هذه اللحظة بالذات انبثق شبحان أمام موقع كمال و هرولا باتجاه مواقع المعارضين، خلال جزء من الثانية و دون تفكير وجه كمال نيران رشاش البي.ك.س إلى الشبحين و أطلق رشقة طويلة من الرصاص سقط على إثرها الشبحان مباشرة.

انتظر كمال حوالي خمسة دقائق منتظراً أن يظهر المزيد من الأشباح و عندما لم يلاحظ أي أحد أخر، أمر أحد الجنود أن يرافقه و أمر الثاني أن يقف مكانه عند الرشاش و أن يحمي ظهرهما.

زحفا باتجاه الكتلة الأولى، قلب كمال الجثة، كان المسلح الملتحي ميتاً، حيث اخترقت ثلاثة رصاصات ظهره،

بحث في جيوبه أخد كل ما وجده و سلمه للجندي الذي برفقته، كما و سلمه جعبة الذخيرة و البارودة الروسية التي كانت مع المسلح المقتول، بحث عن المسلح الثاني لم يجده، كان كمال متأكداً أن المسلحين كانوا اثنين، أمر الجندي ان يرجع مع سلاح و أوراق المسلح المقتول إلى كمينهم أما هو فاستمر بالبحث في ضوء القمر الخافت الذي أطل من خلف الغيوم، أحس كما يحس الوحش بقرب فريسته، ساقته الغريزة إلى إحدى السواقي رأى في قعرها رجلاً يزحف باتجاه مواقع المسلحين، بقفزتين أصبح كمال فوقه دعس على ظهره بقوة حتى أن المسلح أصدر أنيناً شديداً ، ثم و وضع فوهة البارودة الروسية على مؤخرة رأسه:

-أي حركة غلط رح فجر راسك يا كلب، أيديك أمامك...

بسرعة انتزع كمال كل الأسلحة التي كانت مع المسلح، كان المسلح ينزف بغزارة من ثلاثة إصابات في رجليه، عندما قلب كمال جسد المسلح و دقق في وجهه أحس أنه يعرفه، عندما قرأ الاسم في ثبوتيات الرجل لم يتمالك

نفسه و جلس على جدع شجرة مقصوص و هو ينظر مباشرة في وجه خصمه دون أي كلام.

لم يكن هناك أي مجال للخطأ إنه هو عبد الرحمن .

سأل كمال بصوت مبحوح:

-أنت عبد الرحمن محمد العبدي.

لم يجب الجريح، فكرر سؤاله:

-سألتك أم أنك تخجل من اسمك؟

-لا أخجل بل أنك أقل من أن أجاوبك..

-ألم تعرفني؟

استمر المسلح في السكوت الممزوج بنفسه المتقطع، عندها قال له كمال:

-أنا كمال الجردي..

ارتسمت علامة استغراب على وجه الجريح حتى أنه حاول ان يرفع نفسه ليتمعن في وجه خصمه، بعد أن تأكد ارتد إلى الخلف:

-أأنت أصبحت من كلاب النظام؟... ما الذي أدخلك في لعبته الوسخة؟.. ألم تكن تعمل مدير قسم في البنك؟

-بلى ... تذكر فاتن... هي ادخلتني..

-و ما علاقة فاتن... أه تذكرت والدها ضابط مخابرات .. إذاً أصبحت تعمل مع حماك...

-حماي الذي تظنه حماي، متوفى منذ سنة و فاتن كذلك ... أو بالأصح قتلوا ... خمن من قتلهم... ثوارك الأحرار ...

-حماك يستحق الموت ألف مرة..

- و فاتن و اختيها؟ كذلك يستحقون الموت؟

استمر السكون برهة وجيزة تخلله اصوات الاشتباكات و الانفجارات التي كانت تأتي من بعيد.

-أرى من أوراقك و تسليحك أنك لست بمقاتل عادي، هل أصبحت قائداً لديهم؟

أنار بضوء قداحة أوراق عبد الرحمن:

-ما شاء اللّه هنا مكتوب أنك قائد كتيبة لم أعرف أن لك هكذا مواهب عسكرية...

-أصبحت ما قدره اللّه لي، فكر بما أنت عليه الأن، أتعرف لماذا قدر اللّه لنا هذا اللقاء؟

-لا أعرف، قل لي؟

-إنها إشارة لكي تعيد حساباتك و تعود إلى الجانب

الصحيح في الحياة، إنها ثورة شعب بأكمله ضد حاكم مستبد، إنها ثورة يقف الله معها و لن تستطيعون الدفاع عن طاغيتكم طويلاً...

-يعجبني كلامك كما لو أن هذا اللقاء قد تم و أنت في أحسن حال، بل و في موقع قوة، قل لي أنت ما دفعك لتكون حيث أنت؟ هل تستحق بعض الأحاديث الدينية التحريضية و بعض الدولارات أن تكون اليوم هنا؟

-إنها ليست مسألة مال أو فكر ديني، عندما يقتل طاغية زوجتك الحامل قبل أن ترى ابنك ستعرف ما هي المسألة..

-ألستم أنتم من بدأتم؟ أنت تعرف أن النظام كان مستعداً للكثير من التنازلات، كان في وضع ضعيف، كل العالم الغربي بسلاحه و تقدمه العلمي معكم، كل دول الجوار و كل دول العالم العربي و الإسلامي، كل أموال النفط و كل شيوخ الدين، كان لكم سبل عديدة لتسلكوها لكنكم اخترتم أن تستولوا على الحكم بالسلاح، الآن انت تعلم أن السلاح الذي حملتموه له وجهان ..

لكن دعني من هذا النقاش العقيم قل لي ماذا كنت ستفعل بي لوكنت مكانك؟

-كنت قتلتك، لأنك قاتل أو تساند القتلة، و حكم الله في القاتل و من يساعده أن يقتل...

-إنها صراحة ملفتة إذا ماذا تقترح علي أن أفعل معك؟

-انهي هذه المهزلة فأنت تعرف في هذه الحرب لا نحن و لا أنتم نأخذ أسرى...

-صحيح فمفهوم الرحمة في هذه الحرب هو أن تقتل خصمك بسرعة، دون أن تعذبه طويلاً...

رفع كمال رشاشه ببطىء موجهاً إياه إلى وجه عبد الرحمن عندما أصبحت الفوهة ما بين عيون عبد الرحمن، أغمض عبد الرحمن عينيه و نطق بالشهادة.

استمر السكوت، بعد فترة فتح عبد الرحمن عينيه، كان كمال واقفاً ينظر إليه:

-تعرف ماذا تذكرت الأن، تذكر تلك الحادثة التي هاجمني فيها ستة زعران معهم عصي و سلاسل و سكاكين و وقفت معي، سندت ظهري بظهرك و قاتلنا، ما الذي دفعك لتساعدني؟ كانوا أكثر منا و كانوا

زعراناً بمعنى الكلمة... كان من الممكن لأي واحد منهم أن يطعن أحدنا بسكين تحت الضلع و تنتهي بطولاتنا... عندها جرحت في يدك و رجلك و أنت تدافع عني و لكنك لم تتركني وحدي.. تذكر تلك الحادثة..

-أذكر، كانت الأيام وقتها جميلة و كان الصديق صديقاً و العدو عدواً ..

-تقصد أن الأمور اليوم اختلفت، لكن اسمع، سأهديك هدية لم يهديك إياها أحد قبلاُ، سأهديك حياة ثانية، أعرف أني إذا أخذتك كأسير ستتعفن في فرع المخابرات و لن تخرج حياً، لذلك أزحف بهذا الاتجاه فقد يكتب اللّه لك عمراً جديداً و تصل لجماعتك، لكن أعلم أنني أنصحك أن تترك السلاح إذا عشت، غادر خارج البلد و عش برخاء من الأموال التي حصلت عليها، أو اعقد اتفاق مصالحة مع القوات الحكومية فتصبح قوة حماية محلية في منطقتك، أعلم أنك قد لا تقبل نصيحتي و عندها اتمنى أن لا أراك ثانية لأني حكماً سأقتلك في لقائنا الثاني...

راقب كمال بهدوء عبد الرحمن و هو يزحف في قعر القناة إلا أن أصبح شبحه يتلاشى أمامه، ثم أطلق رشقة من

رشاشه في الهواء و بعدها سار بهدوء و هو يتخفى ببقايا بعض الأشجار و بعض الأسوار إلى أن وصل إلى موقع كمينهم، كان هناك النسر بانتظاره، سأله:

-هل حصّلت الأخر؟

-طبعاً... جلبت سلاحه لكن لم يكن معه أي شيء يثبت شخصيته.. يبدو أنه من المرتزقة الأجانب، كثير منهم لا يوجد معهم ما يثبت شخصيته.

-هل سرت بعيداً حتى وجدته؟

-بعيداً ، فقد زحف الكلب و اختبئ لكن مشواره انتهى هناك، هلموا بنا نرجع إلى مواقعنا كفانا صيداً اليوم فقد أوشك الفجر أن يهل...

المقدم رعد

بعد فترة من المعركة الليلية أصيب كمال بشظية من أحد قذائف المعارضة في يده، لم تكن الإصابة خطيرة على حياته إلا أنه حصل على إجازة نقاهة لمدة شهر، عندما عاد من المشفى العسكري الذي تمت فيه عملية إزالة الشظية و معالجة الجرح و تضميده، ودع صديقيه و جهز بعض أغراضه البسيطة، جاءه أحد المساعدين ناقلاً أمراً من قائد الموقع المقدم رعد أن يأتي فوراً إلى مقره.

استغرب كمال لهذا الأمر إلا أن استغرابه لم يتسبب في تأخيره بالتنفيذ، عندما دخل إلى المقر تفاجأ بوجود عدد كبير من الحراس يفوق العشرة عند مدخل البناء الذي اتخذه المقدم كمركز قيادة، في داخل المقر تفاجئ أكثر فقد كانت على طاولة المقدم سفرة كاملة من المازيات و الفواكه وزجاجة وسكي، و كان المقدم يضع سيكاراً في فمه.

دخل كمال و أدى التحية العسكرية مقدماً نفسه، نظر إليه المقدم بتمعن ثم ابتسم من خلف دخان السيكار و

دعاه للجلوس.

-لم يتح لي يا ملازم أول كمال أن اتعرف عليك عن كثب منذ قدومك إلى تشكيلنا، فأنت تعرف القوات التابعة لي موزعة على أكثر من محور و منطقة، و يستغرق وقتاً طويلاً مني متابعة احتياجاتها، و لكني مسرور منك كثيراً، فقد وصلتني تقارير شافية عن بطولاتك، فلا تظن أنه بسبب قلة تواجدي معكم لا أعرف ماذا يحصل هنا، تصلني تقارير مفصلة عن كل شيء، الضابط الجبان أو المتقاعس بتنا نعرفه و الضابط الشجاع و المقدام مثلك بتنا نعرفه، و لكني أبشرك فقد رفعت توصية إلى القيادة بمنحك مكافأة و زكيت أن يتم منحك وساماً و قد يتم ترفيعك كذلك.

-أشكرك سيدي المقدم، أنا جندي أخدم بلادي، لم أفعل أكثر مما يفعله زملائي، كل ما قمت به كان بتوجيه من ضباط التشكيل الذي ترأسونه سيادتكم، و بمؤازرة من جنود و صف ضباط التشكيل، أظن أن هنالك من يستحق المكافأة أكثر مني...

-هذا تواضع منك يا بطل، و لكن من تقصد من

الضباط و الجنود..

-هناك الرائد رياض هو من نظم و أدار كافة الكمائن التي قمنا بها، و هناك المساعد محمد...

لم يخفى على كمال الامتعاض الذي ظهر على وجه المقدم عندما ذكر اسم الرائد رياض، لكن المقدم تمالك نفسه قائلاً:

-تقصد المساعد محمد النسر نعم إنه مقاتل جيد، سأرفع توصية كذلك بمكافأته.

أمر المقدم أحد حجابه أن يصب كأس وسكي و ناوله لكمال، كان كمال لم يشرب كحولاً منذ أكثر من سنة ، فتناول الكأس و هو لا يعرف ماذا سيفعل.

شجعه المقدم:

-اشرب لا تخف، إن الوسكي سيخفف عنك تأثير الإصابة، أعرف هذا من نفسي فقد أصبت عدة إصابات سابقاً، لا شيء ينسي ألم الجسد و الروح أكثر من الوسكي.

-أشكرك سيادة المقدم..

شرب كمال شفة كبيرة فأحس بطعم مرار و ثقل

الوسكي المعتق، ثم سرت موجة من الدفء في جسده، كانت قد جاءت في وقتها فالأجواء شديدة البرودة كانت قد جعلت الألم في كتفه يتصاعد مما دفع بكمال أن يكز على أسنانه بشكل غير ملحوظ.

كان فكرة واحدة لا تغادر ذهن كمال، ماذا يريد المقدم منه، في تلك الأثناء تابع المقدم كلامه و هو يشف شفات صغيرة من كأس الوسكي الذي في يده، كان يحرك شفتيه كما لو أنه يريد أن يطيل أمد تذوقه لكل قطرة.

-تعرف يا كمال، سأقول لك بما تفكر، أنت في داخلك تسأل لماذا يهتم المقدم رعد بي؟ أرى ذلك في عينيك، و بما أن السؤال في عينيك سأجاوبك، لكني سأوضح لك قبلها أموراً لا يعرفها غير قلة من الناس المحظوظين، تعرف لماذا لا يعجبني الرائد رياض، لأنه مثال الضابط الفاشل الذي لا يرى أبعد من أنفه، قد يُظهر بعض الشجاعة أو بعض التمكن في بعض الأساليب الحربية إلا أنه في المحصلة و عند المحك سيكون ضاراً أكثر من كونه نافعاً، لماذا؟ لأنه لا يرى الصورة كاملة، لا يرى المعركة الحقيقة أين تجري، لا يعرف ما هي الغايات

الحقيقية التي تدور حولها الحرب، يعتقد أن الجزئيات الصغيرة التي يركز عليها هي التي تقرر الحرب و هو في المحصلة لا يعدو كونه برغياً في آلة عملاقة، يدور في اتجاه الحركة دون أن يكون له أي دور في تقرير الشكل الذي ستتخذه الأحداث، و عندما يقرر أن يظهر ذكائه و يفكر بفكره المحدود يصطدم بقوى أكبر منه لا تلبث أن تطحنه و تعيده إلى موقعه الطبيعي و تجبره مجدداً أن يدور في الاتجاه المحدد له...

كان كمال في داخله متفاجئ من الهجوم على الرائد رياض و هو الذي كان يعتبره قدوة له في مساره الحربي، كما و كان معجباً بسعة اطلاعه و شجاعته و إقدامه، إلا أنه لم يشئ أن يقاطع المقدم و الذي بدى مسترسلاً أكثر و أكثر في الكلام.

-الحروب في الأمس و اليوم و غداً أسبابها في جوهرها اقتصادية، أحدهم يريد أن يستولي على شيء موجود عند الآخرين، هذا هو جوهر الحروب، الاقتصاد، و لذلك يا كمال أنا احترم معارفك الاقتصادية و خبرتك العملية في قطاع المصارف، و نحن بحاجة إلى ضباط شجعان نعم، و

لكن نحن بحاجة إلى اشخاص يدركون كيف تدار الحروب و ليس فقط كيف يطلقون الرصاص..

لقد قال أحد العظماء قديماً أن أعتى القلاع و التي يعجز أقوى الجيوش عن اعتلاء أسوارها، يجتاز أسوارها بسهولة حمار محمل بالذهب.

نحن اليوم يا كمال نخوض عدة حروب في حرب واحدة، هناك حرب إعلامية و حرب اقتصادية و حرب استخباراتية و حرب دينية، و الشاطر من يفوز بالنهاية، هم يريدون أن يركعونا باستخدام كل الوسائل المتاحة أمامهم، بدؤوا بالإعلام و الاقتصاد و المخابرات و اليوم انتقلوا إلى تسليح المعارضة بشكل مباشر، أنشؤوا قواعد عديدة لتدريب المعارضة في دول الجوار سلحوها بأحدث الأسلحة و مع ذلك نحن ما زلنا صامدون، فعادوا إلى الضغوطات الاقتصادية و محاولة تجويع الشعب، ما سبب صمودنا برأيك؟ كيف نستطيع أن نتدبر أمورنا، السبب هو أن أعدائنا هم من يقوم بتمويلنا، هم يرسلون الأموال السخية إلى المعارضة و لكن عائلات المعارضين موجودون ليس في المناطق الساخنة بل في المناطق الأمنة التي تسيطر عليها

الحكومة، هم يرسلون الأموال لدعم اقتصادنا حيث نحن من يتحكم بدخول و خروج المواد و الاحتياجات إلى المناطق التي تسيطر عليها المعارضة.

أعلن المقدم فجأة انتهاء اللقاء:

-أذهب أيها البطل و تعافى، و عندما تعود سيكون لك مهام مميزة ، حيث سأعتمد عليك في أمور خطيرة و فيها مصلحة كبيرة للوطن و لك شخصياً.

إجازة عسكرية

عندما قدم كمال إلى بيته في صبيحة أول يوم من نقاهته كان الجو قد تغير بشكل مفاجئ فكانت الدنيا مشمسة بتلك الشمس الحامية التي تجعلك تشك أنك في الشهر الحادي عشر من السنة و تتذكر غصباً عنك المثل الذي كان يتداوله كبار السن في البلاد (ما بين تشرين و تشرين صيف ثاني).

كانت عائلته قد انتقلت منذ بداية الأحداث للعيش في محافظتهم الجبلية في الجنوب الشرقي و لم يبقى له أحد من الأقرباء في العاصمة، فذهب إلى شقته المتوضعة في ضاحية مختلطة تكاد تجمع جميع فئات المجتمع و جميع نواحي البلاد في شوارعها و أزقتها، و التي كذلك تراوحت مستويات سكانها بين الفقيرة و الغنية، مع غلبة المستوى المتوسط، فتح باب شقته ، فتح النوافذ كان كل شيء كما قد تركه منذ أكثر من سنة، كان الديكور و الأثاث أنيقاً و جديداً، فهو لم يسكن هذا البيت مطلقاً، جهزه لكي يسكنه مع عروسه في المستقبل، لم يتغير

شيء سوى طبقة من الغبار فوق الأشياء و الأرض، حاول أن ينظف المنزل فاستغرقه الوقت خاصة أن الجراح في يده قد حدت من حركته، استغرب مع ذلك من نفسه هذه الصفات الجديدة، فسابقاً لم ينظف منزله أبداً، كان متعاقداً مع عاملة تنظيف تنظف منزله كل عدة أيام، و هو كان يحافظ على ترتيب الأشياء، و لكنها يبدوا نتائج الحياة العسكرية، شطف الأرض بالماء، مسح الغبار مسح زجاج النوافذ أعاد الترتيب، بعدها جلس على الشرفة يجهز دولة قهوة، صب فنجاناً، شف شفة مستمتعاً بطعم القهوة ...

أخرج جهازه الخليوي و بدأ يتصل بأرقام أصدقائه تباعاً، كان رقم خليل خارج التغطية، تمكن من الاتصال بعابد و حنا فعزمهما لكي يقضيا السهرة لديه.

جاء الأصدقاء مساءاً، جلب عابد معه عشاء من اللحم المشوي، أما حنا فجلب معه زجاجة عرق (مثلث) أرسلها له أقربائه من قريتهم و التي كانت مشهورة بصناعة العرق المنزلي.

كان الشيء الجميل في عابد و رغم تدينه، أنه أبداً لم

يعترض على أي من أصدقائه بأن يشرب الكحول أمامه طالما كان المجتمعون في مكان خاص و ليس بهم أحد غريب، كما أنه كان يعرف أن الخمر مسموح به في كثير من الأديان السماوية و على العموم كان رأيه أن كل شخص حر في مسلكه، و رغم أن الأصدقاء حاولوا كثيراً أن يجعلوه يتذوق أي نوع من الكحوليات إلا أنه كان يرفض بأدبه المعهود مما كان يبقيه دائماً هدفاً لتندرهم و تكرار محاولاتهم.

كان اللقاء بينهم مؤثراً، مياه كثيرة قد جرت منذ أخر لقاء لهم، الحرب اشتدت و الأزمات تتالت، أصبحت ظروف الحياة أصعب، مات الكثيرون و تشرد أكثر، هاجر مئات الألوف من البلاد، نزح الملايين إلى المخيمات أو إلى المناطق الأمنة، تغيرت خارطة الجغرافية و معها خارطة المفاهيم، فأصبح الماضي بكل ما يحمله من ذكريات أغلى و أكثر حميمية على قلوبهم.

رتب كمال مائدة الطعام، فالتم الأصدقاء الثلاثة يأكلون و يتسامرون، كما و شرب كمال و حنا عدة كؤوس من العرق، بدأ كمال و حنا كعادتهما يتغامزان باتجاه عابد،

فبدأ كمال يحدث صديقيه:

-أتعرفان، لقد غيرت تجربتي العسكرية في نواح كثيرة و قد اكتشفت أشخاص استفدت منهم ليس على مستوى المعارف العسكرية فقط بل على مستوى المعارف الفلسفية و التاريخية و الأدبية إذا شئتم..

سأله حنا:

-كيف ذلك أعرف أن ضباطنا أشد من يمقتونهم هم المثقفين، بل إذا أردت أن تستهزئ بشخص في الجيش تقول له يا أستاذ.

-هذا صحيح واجهت ذلك في دورة الضباط كما و ذلك صحيح في القطعات العسكرية التقليدية و عند الضباط التقليدين، لكن في هذه الحرب اختلفت طرق القتال، أصبحت التشكيلات الرسمية لا معنى لها، فلا وجود لخط جبهة و لا وجود لعدو معروف، فالعدو الأخطر قد يكون موجوداً داخل القطعة العسكرية و ليس خارج أسوارها..

استغرب عابد:

-و ما علاقة نوع العمليات الحربية بتغير عقلية الضباط؟

-في هذه الحرب حدث فرز واضح، فإما الضابط يخاف من جنوده أكثر من خوفه من العدو و قد رأيت نماذج عديدة من هكذا ضباط، حيث يقفل غرفته على نفسه ليلاً مخافة أن يغتاله أحد الجنود، و إما ضابط ينام في خندق واحد مع جنوده، يكون أول من يتقدم و أخر من يتراجع، يخاف على جنوده أكثر من خوفه على نفسه، و هؤلاء الضباط في الحقيقة ليس بكثر و لكن مجرد وجود أحدهم في موقع عمليات ما يعتبر علامة نصر عند الجنود.

صب حنا كأسين جديدين من العرق و رفع كأسه قائلا لكمال:

-بصحة رجوعك بالسلامة، لكن لم أفهم هل الضباط أصبحوا يهتمون بالثقافة و يشجعونها لكي يحببوا جنودهم إليهم..

-بصحتك.. ليس تماماً و لكن الضابط المثقف يمتلك عقيدة، و امتلاك العقيدة يعطيك الشجاعة و الاقدام، لأنك إذا قُتلت فأنت مقتنع بالهدف الذي تقاتل من أجله، خذ مثلاً قائدي المباشر الذي كنت أنام أنا و إياه في خندق واحد لأكثر من نصف سنة، فقد أعطاني بالإضافة

للعقيدة القتالية، معارف فلسفية و تاريخية قد أعيش عمري كله فلا أعرفها.

سأل حنا:

-هل كنتم تجدون وقتاً للأحاديث الفلسفية و التاريخية في الخنادق؟ ثم من أين لقائدك هذه المعارف؟

-هناك متسع كبير من الوقت ما بين الحياة و الموت، فهناك الانتظار الذي يثقل الروح أكثر من أي شيء، قائدي لم يكن بمفهوم الضباط ناجحاً، فقد كسرت رتبته مرتين، كان عنيداً و رفض عدداً من الأوامر العسكرية العبثية و التي كانت ستؤدي إلى موت جنوده دون فائدة، و لكنهم مع ذلك رغم أنه حوّل للمحكمة العسكرية قد أرجعوه لموقعه، فمثله يثقّل بالذهب على خطوط التماس الأمامية، ثقافته كانت قد جعلت منه إنساناً مبدئياً و مقاتلاً شرساً.

غمز حنا كمال:

-إذا أكيد قد تحدثتم في موضوعات فلسفية و حياتية عديدة و قد تطرقتم لا شك إلى قضية الخمر في الدين و الدنيا فما كانت توصيات قائدك بهذا الخصوص؟

ابتسم كمال:

-قد تتفاجئ يا حنا و لكن في أحد الليالي الباردة كنا في كمين متقدم أنا و معي صديقي و هو مساعد يدعونه النسر، كان البرد قارصاً و كنا لا نستطيع أن نشعل أي ضوء لكي لا نكشف موقعنا، كنا مختبئين في قعر ساقية، بللت المياه لباسنا و أحذيتنا، و بدء البرد ينخر عظامنا مع هبات ريح زمهرير و زخات مطر متقطعة، فجأة انتبهنا لشخص يزحف إلينا من خطوطنا الخلفية كان قائدنا الرائد رياض، جلب لنا مطرة بها عرق و قال لنا أن يشرب كل واحد منا عدة شفات، بعد عدة أيام كنا نتسامر في مقرنا فجأة سأل النسر الرائد ما رأيه بالخمر و هل هو محرم في ديننا أم لا.

ابتسم عابد:

-و هل هذا سؤال يسئل، طبعاً الخمر محرم في الدين و في ذلك آيات و احاديث و احكام شرعية بينة.

-أنا لست فقيهاً في الدين كما تعرف يا شيخ عابد و لكني سأنقل لكم ما حدثنا به الرائد رياض، حدثنا الرائد أن الخمر لم يكن ممنوعاً أيام الرسول الكريم و

كان الصحابة يشربون الخمر إلا أن الرسول كان ينهاهم عن الإسراف في شرب الخمر حتى لا يسكروا و قد جاءت الآية الكريمة تؤكد على عدم جواز صلاة الشخص السكران (و لا تقربوا الصلاة و أنتم سكارى) و بالتالي لم يحرم الخمر بشكل مطلق أيام الرسول إلا أنه كان مكروها و طلب القرآن اجتنابه، ثم في أيام الخليفة عمر صدر أمره بتحريم الخمر كلياً، ربما لأنه اقتنع أنه من الصعب على الشخص أن لا يسرف في شرب الخمر إذا ما بدأ بذلك، و لكن مع ذلك لم يلتزم كثير من الصحابة و المسلمين الأوائل بهذا القرار، و قصة ذلك الفارس المغوار الذي حبسه الخليفة عمر في دار الخلافة و منعه من المشاركة في المعركة لأنه كان يشرب الخمر معروفة، حيث طلب الفارس من زوجة الخليفة أن تطلق سراحه و وعدها أن يقاتل و هو ملثم و أن يعود إلى سجنه إذا ما بقي حياً، و هذا ما حصل ، فقد عاد بعد المعركة إلى حبسه و ترك جميع جيش المسلمين في حيرة؛ من ذلك البطل المغوار الذي قاتل ملثماً و كان سبب النصر في تلك المعركة، يقال أن الخليفة عفى عن زوجته لمخالفتها أوامره و اطلق

سراح البطل بعدما عرف الحقيقة، تذكرون هذه القصة طبعاً يا أصدقائي فقد كانوا يدرسونها لنا في المدرسة لكي يظهروا لنا عدالة الخليفة و شجاعة المسلمين الأوائل، و لكن لم يكونوا يذكرون لنا هل هذا البطل عاد لشرب الخمر بعدها أم لا ؟ على الأغلب عاد...

هناك فريق حرم الخمر بموجب الآية الكريمة (و إنما الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) فاختلف الناس في تحديد ما هي الخمر و هل النبيذ خمر أم لا، و إلى ما هنالك من مشروبات روحية هل هي خمر أم لا.

كل الخلفاء من أمويين إلى عباسيين كانوا يشربون الخمر، و كتب التاريخ مليئة بأخبارهم في ذلك، ليس الخلفاء فقط بل عامة المسلمين كذلك، ففي العصر العباسي انتشر مذهب فقهي في العراق بأنك إذا شربت الخمر ثلاثة كؤوس فذلك حلال و ما زاد عنه أصبح حراماً..

في أيام العثمانيين كان الولاة يفرضون الضرائب الباهضة على دور الخمر، فكانت ترفد خزينة الدولة بمال وفير، و

عندما كان يزداد غضب العامة كانوا يسمحون للغوغاء بأن تدمر هذه الدور، و يقفون مرائيين في موقف المدافع عن حرمات الدين، فينام الشعب مستكيناً بأن أوامر الله قد نفذت و بعد فترة يعود الولاة للترخيص لدور الخمر...

مشاغل صغيرة

في صباح اليوم التالي استيقظ كمال مبكراً و ذهب إلى الكراج الصغير الذي كان قد ركن به سيارته جانب منزله طوال فترة غيابه، جلب معه كهربائي السيارات لفحص بطارية السيارة، قام الكهربائي بشحن البطارية، ثم أخذ كمال السيارة إلى مغسل السيارات وغسلها، ثم اشترى كوباً من القهوة من كرفانة في الشارع، سار في الطرقات ببطئ و هو يستمتع بطعم القهوة.

أخذ يجرد في ذهنه المشاغل المتراكمة أمامه، فبداية كان يجب أن يذهب إلى إدارة الحسابات العسكرية و التي تعينه الأساسي بها لكي يقبض رواتبه عن الفترة الماضية، ثم عليه أن يذهب إلى المصرف الخاص والذي كان يعمل به سابقاً، حيث أنه التحق بالجيش بشكل مفاجئ، قدم استقالته و لكنه لم ينهي المعاملة الخاصة بالتعويضات المستحقة له عن عمله، زد على أنه قد حول أقساط سيارته على حسابه المصرفي فكان يريد أن يجري مطابقة لما تبقى في حسابه.

انشغل كمال طوال اليوم بهذه الأمور حتى جائت فترة ما بعد الظهيرة و أقفلت الدوائر الرسمية، انطلق إلى سوق مواد الكهرباء و اشترى مولدة كهرباء صغيرة لشقته، حيث أنه في سهرة الأمس قطعت الكهرباء على الرفاق و اكملوا السهرة على ضوء الشموع و حينها نصحه عابد أن يقتني مولدة كهرباء صغيرة تعمل على البنزين و أن يخزن كمية من البنزين دائماً لأن المحروقات كل فترة تختفي من الأسواق و يمارس بعض الانتهازيين تجارة السوق السوداء بها، أما حنا فقد نبهه إلى أن المولدة ستزعجه على الأغلب بصوتها و يفضل أن يركب بطارية كهربائية و يرفق بها جهاز شحن و تحويل للتيار الكهربائي، قرر كمال أن يطبق الطريقتين معاً فكل طريقة لها إيجابيات و سلبيات و طالما أنه كان في بحبوحة مادية حيث بقي معه مبلغ معتبر بعد أن سوى أموره المالية.

أمضى كمال ما تبقى من اليوم في صحبة فني الكهرباء الذي وصل له المعدات التي اشتراها كمال في الظهيرة.

بعد أن انهى هذه الأعمال اتصل كمال برفيقيه حنا و عابد و عزمهما كذلك الليلة لعنده لتناول اللحم المشوي الذي

سيشويه بنفسه على الشرفة الفسيحة في شقته.

قرر أن يعمل مفاجئة لأصدقائه، فعندما انقطعت الكهرباء في موعد التقنين و الذي كان في تلك الأيام في العاصمة بنظام ثلاثة ساعات كهرباء إلى ثلاثة ساعات انقطاع، بدأ يقول لرفيقيه و هو يتظاهر بالبحث عن الشموع:

- أين تركت الشمع يا ترى؟

ثم فجاءة أشعل زر الإنارة الاحتياطية و قال هو يضحك:

- هذه أول مفاجئة فقد ركبت نظام إنارة احتياطي موصول ببطارية كهربائية، و المفاجئة الثانية في حال طالت فترة الانقطاع أو حدث عطل غير متوقع و استغرقت الطوارئ فترة طويلة في تصليح العطل و ضعفت البطارية فلدينا مولدة كهرباء باستطاعة معتبرة، و صوت؛ قال لي البائع أنه رخيم، حيث بها كاتم صوت، و لكن سنترك القرار الأخير بصدد نعومة الصوت للجيران.

بعدها انشغل الرفاق بالتحضيرات للعشاء، فتولى عابد تقطيع الخضار للسلطة، و تولى حنا تتبيل اللحم و تجهيز سياخ الشوي، أما كمال فقد تولى مهمة الشوي نفسها...

بعد أن تناول الرفاق عشائهم، جلسوا متخمين يشربون الشاي و يتسامرون في الأحداث التي مرت خلال العام الذي لم يروا بعضهم فيه، دخل عابد إلى المطبخ و معه كيس كبير ليقوم بشيء ما، في تلك الأثناء مازح كمال حنا:

-أنت اخترت أسلم شيء، تسعف جميع المصابين و لا تعادي أحداً في هذه الحرب..

-ليس دائماً يا صديقي ما تظنه أسلم شيء يكون كذلك..

-لا تأخذ كلامي بجدية، أمازحك فقط، أعرف أن عملكم به الكثير من الخطورة، شاهدت بعيني فرق الإسعاف التابعة للهلال و الصليب الأحمر كيف تعمل على خطوط التماس، الشباب و الشابات حقيقة لم يقصروا، يخاطرون بحياتهم في سبيل إنقاذ حياة مصاب ما..

-أنت تعرف ما هو شعار منظمتنا؟ (إذا لم نستطع منع وقوع الحرب فالنقلل قدر المستطاع من آلامها) نحاول أن نخفف من النتائج المؤلمة لهذه الحرب، لا يهمنا من هو المصاب، يهمنا أنه إنسان..

-و لكن هل تعرف يا حنا أن عملكم يتم استغلاله أحياناً من قبل المعارضة بشكل بشع، هل تعلم أنهم كانوا يستخدمون السيارات المسروقة من منظمتكم و التي تحمل شعار الصليب و الهلال الأحمر لنقل الذخيرة و السلاح؟

-ليس هم فقط، كثير من ضعاف النفوس على طرفي الصراع كانوا يستغلون اسمنا، إحدى المرات فقدنا سيارة إسعاف و بعد حوالي الشهر وجدناها في حالة يرثى لها، بعد أن استقصينا عن القضية فهمنا بشكل غير مباشر أن مجموعة من الفاسدين في القوات الحكومية كانت تنقل بها المواد المسروقة من مناطق الاشتباكات، حيث كانت السيارة لا تفتش على الحواجز بحجة أنها تنقل الجرحى.

-معك حق، هناك أعداء مخفيون داخل جيشنا و دولتنا أخطر ألف مرة من أعدائنا الذين يواجهوننا مباشرة.

في هذ الأثناء داخل عابد من المطبخ المتصل بغرفة الجلوس الكبيرة حاملاً أركيلة جميلة اشتراها هدية لصديقه كمال:

-شوف هي العروس، هي هدية رجوعك بالسلامة يا سيادة الملازم أول كمال...

-شكراً يا فضيلة الشيخ عابد، لا يفوتك شيء من الواجب، تفضل و اجلس بيننا لتشاركنا الحديث.

-عن ماذا يدور حديثكم الممتع أنت و هذا المسعف؟

-نتحدث عن اهمية دورينا في هذه الحرب، باعتبارنا نحن من نقرر مسارها و لنا الدور الأكبر في حسم مآل الأمور..

-لا أشك في ذلك..

أكمل عابد حديثهم التهكمي و هم يقهقهون، فجأة تظاهر كمال أنه قد تذكر شيئاً:

-لكن نحن قد حددنا دورينا في هذه المرحلة، أما أنت يا عابد ما هي المهمة التي سنسدها لك؟

-أسندوا لي مهمة المصالحة الوطنية، حيث منذ عدة شهور و أنا اعمل مع لجان المصالحات، نذهب إلى المناطق المختلفة، نحاور الجماعات المسلحة، نقنعهم بعمل هدنات مع القوات الحكومية، نحاول عمل تبادل للأسرى أو نؤمّن دفع فديات للمخطوفين و غير ذلك من النشاطات الاجتماعية و الإغاثية.

قهقه كمال متهكماً:

-كمل النقل بالزعرور، ضابط و مسعف و عضو لجان

مصالحة وطنية..

استغرب عابد:

-و لماذا كمل النقل بالزعرور؟ ما صلة الوصل بين الثلاثة؟

-صلة الوصل هي الطرفة التي يتداولها الناس هذه الأيام و قد سمعتها منذ فترة، تقول الطرفة: بعد انتهاء الحرب في بلادنا بعد عدد غير محدد من السنوات، أصبحت البلاد كلها في حالة خراب و تدمير، يقوم رجل بجولة مع ابنه فإذا بهما يريان ثلاثة قصور وسط الدمار فيسأل الولد أباه: بابا لمن هذا القصر الأول؟ فيجاوب الوالد: هذا يا بابا لضابط كان مسؤولاً عن أحد الحواجز، فيسأل الولد: و لمن القصر الثاني؟ فيجاوبه: و هذا الشخص كان مسؤولاً عن توزيع الإعانات و المساعدات من قبل الصليب و الهلال الأحمر، و لمن القصر الثالث يا بابا؟ فيجاوبه لعضو لجان المصالحة الوطنية حيث كان مسؤولاً عن ترتيب دفع فديات المخطوفين.

ضحك الرفاق كثيراً على هذه الطرفة مع إدراكهم أن مقولة (شر البلية ما يضحك) لا بد أنها تنطبق على هذه

الحالة، استمرت السهرة و كل واحد من الرفاق يتذكر بعض القصص التي جرت معه خلال هذه الأيام، و رغم أن كمال حدث رفيقيه بكثير من الأحداث التي جرت معه في العسكرية إلا أنه اخفى أمر لقائه بعبد الرحمن، كان موضوعاً مخبئاً في أعماق أعماق وعيه، فهو كان يدرك خطورة الموضوع، كما أنه لم يكن مستعداً بعد لمناقشة المسألة مع أحد، و من جهته اجتهد عابد أن لا يتطرق الحديث لفاتن أبداً .

سأل عابد متهكماً:

-خبرني يا أيها المسعف ما هي أخر إنجازاتك المهنية؟

تظاهر كمال بالاستغراب:

-و ما هي الإنجازات التي من الممكن أن يحققها في عمله اليومي؟

-ألا تعرف أنهم باتوا يذهبون في مهام خارجية و قد عاد لتوه من مهمة في المناطق التي يسيطر عليها المسلحون؟

-حقيقة يا حنا؟! حدثني ماذا رأيت؟

تغيرت نظرة حنا إلى الجدية قليلاً فحدث رفيقيه:

-أعلنت منظمتنا أنها ستستجيب لطلب المسلحين بإقامة

نقطة طبية في المناطق التي سيطروا عليها، فطلبت إدارتنا عدداً من المتطوعين للقيام بالمهمة و عرضوا مكافآت مالية جيدة، كانت العملية مغامرة حيث رفض الجيش السماح لنا بالمرور على مسؤوليته فقررنا الذهاب على مسؤوليتنا، انطلقت قافلتنا المكونة من عدد من سيارات الدفع الرباعي و عدد من الشاحنات و جميعها تحمل الشارات المميزة إلى مناطق المعارضة، حيث فتح لنا الجيش و المسلحون ممراً، هناك أقمنا مخيماً رفعنا به أعلام الصليب و الهلال الأحمر، و بدأ المسلحون يجلبون لنا المصابين لكي نقوم بعلاجهم أمضينا هكذا أكثر من أسبوعين و نحن نعالج المصابين في البداية كانت الحالات كثيرة جداً و صعبة جداً بالتدريج خفت الحالات فقررنا أن نعود بعد أسبوعين، خاصة بعد نفاذ العديد من المواد الضرورية لعملنا فإذ بالمسلحين يمنعوننا.

-و كيف تمكنتم من العودة؟

-لقد كان مخيمنا كما قلت لكما بعيداً نسبياً عن مواقع المسلحين و كان شرطنا أن لا يدخل شخص مسلح إلى المخيم أو محيطه، و طوال فترة تواجدنا في المنطقة

خفف الجيش كثيراً من عملياته ضد المسلحين حتى أن المسلحين أقاموا مقراً لمحكمتهم الشرعية بجانب مخيمنا الطبي لكي لا تتعرض للقصف، ثم بعد أسبوعين نشبت اشتباكات عنيفة بين الجيش و المسلحين فقمنا في الليل بتجهيز السيارات و تركنا الخيم منصوبة و في الصباح الباكر انطلقنا بأقصى سرعة باتجاه المواقع الحكومية، حمداً للرب، انتبهت القوات الحكومية لانطلاقنا فقامت بتغطيتنا بنيران غزيرة فلم يستطع المسلحون اعتراضنا و هكذا نجونا.

-و كيف وجدت الحياة في مناطق المسلحين؟

-بؤس و حصار و دمار و تطرف، هذه المحكمة التي يسمونها شرعية و التي نصبوها بمقربة منا، كنا لا نسمع أحاديثهم و لكن كنا نرى ما يحدث بها، فكانوا يأتون بأناس ثم يقومون بقطع يد بعضهم أو اصابع بعضهم الأخر، ثم يلفون لهم أطرافهم المشوهة بالشاش و يتركونهم، بعد فترة طبعاً كانت هذه الجروح تلتهب فكان هؤلاء المساكين يأتون إلينا لتلقي العلاج فكنا نسألهم ما هي التهم التي ارتكبوها ليتعرضوا لهكذا

عقوبات؟ لكنهم ومن خوفهم لم يكونوا يجاوبوننا.

-هناك جوع؟

-حسب ما فهمنا من الناس الذين كانوا يتعالجون أن المواد الغذائية محتكرة من قبل التنظيمات المسلحة و قادتها، فهم يسيطرون على المواد الإغاثية التي تقدمها المنظمات الإغاثية الدولية و يوزعونها على اتباعهم و عائلاتهم و هم بذلك يضمنون ولائهم، و ما يزيد عن ذلك يتاجرون به بأسعار مضاعفة عشرات المرات، الناس التي ليس في عائلاتها من ينضم للمسلحين يأكلون العشب و فضلات الطعام، مات العديد من الناس من الجوع و عدم توافر العناية الطبية.

تنهد الصديقان عند سماعهما هذه القصة، ثم استدرك كمال:

-تعرف يا حنا هناك موضوع لم أكن اجد له تعليلاً، كنت اتابع عندما أتمكن من الحصول على أنترنت مواقع المعارضة المسلحة، و هم في الآونة الأخيرة يصبون جام غضبهم على الطيران الحربي و مدفعية الجيش و يتهمونهم باستهداف المدنيين، و رغم أنني أعرف تماماً طريقة عمل

الجيش، تولد لدي شعور ـ بل تأكد ـ أنهم يخفون العدد الحقيقي من القتلى، فيظهر تناقض عجيب بين ادعائهم مثلاً أن الجيش قد قصف المنطقة الفلانية بعشرة براميل متفجرة، أو بعدد من صواريخ أرض ـ أرض، أو أنه قد هدم عدداً من المنازل، و بين أعداد الضحايا المعلنين كأن يقولوا أنه اصيبت امرأة واحدة بجروح أو استشهد طفل واحد.

-لا أعرف شيئاً عن هذه المواقع و ما معيارها في نشر أخبارها، لكن يمكن أن أذكر لك ما كنت أراه كل يوم تقريباً في المنطقة التي كنا بها، في فترة المساء كان المسلحون يأتون بمركبة أشغال صغيرة أو ما يدعونه في مجال الانشاءات (البوك) و يحفرون حفرة طولية ، ليست بالعميقة حوالي المتر عمقاً و بطول حوالي عشرة أو خمسة عشر متراً، ثم يأتون بجثث مقاتليهم عشرة أو أكثر من ذلك يومياً ثم يدفنونهم بسرعة، يردمون عليهم التراب دون شواهد و دون أي شيء آخر، كانت هذه الحفر غير عميقة كما قلت لك سابقاً، كثيراً ما كنا نرى أحد الكلاب يهرول و في أسنانه عظام و بقايا أشلاء بشرية.

اتصال غير متوقع

بعد عدة أيام ذهب كمال الجردي إلى المشفى ليتم تبديل الضماد و هناك طلب الأطباء صوراً شعاعية جديدة، بعدها اخبره الطبيب المشرف على حالته ان الشظية يبدو قد أصابت أحد الأعصاب و على الأغلب سيحتاج إلى عملية جراحية، خرج كمال من المشفى و هو لا يفكر بشيء، فجأة رن جهاز هاتفه الخليوي، أخرج الجهاز بعد عدة رنات و هو يخمن ترى من هو المتصل، اتجه فكره أنه سيكون إما عابد و إما حنا، لكن المفاجأة أنه رأى رقم خليل الناصر، فتح الخط بسرعة و قال:

-آلو ...آلو خليل كيفك

-منيح كيفك انت.

-من وين عمتحكي؟ من الشمال؟

-لأ أنا في العاصمة الجنوبية.

-امتى رجعت

-من نصف ساعة نزلت الطيارة في المطار العسكري.

-خليك عندك تلت ساعة بكون عندك.

استقل كمال سيارته بسرعة و انطلق إلى المطار العسكري و الذي كان في الواقع جزءاً من المطار المدني إلا أن له مدخل خاص، بعد مشاداة كلامية مع الحراس و اتصالهم بالمسؤول عن حراسة المطار، و إعلامهم إياه أن هناك ضابط يريد أن يدخل ليصطحب احد الإعلاميين القادمين من الشمال، سمحوا له أن يدخل بسيارته إلى حرم المطار و لكن بعد تفتيش السيارة بدقة.

اصطحب كمال صديقه و هو لا يكاد يصدق عينيه، أخبره خليل أنه و بسبب قطع الطريق البري إلى عاصمة الشمال قدم إلى عاصمة الجنوب مع الطائرة الحربية التي تقوم بنقل المؤن و الجنود.

سأله كمال:

-هل انتهت مهمتك في الشمال؟

-ليس بعد و لكنني كنت قد طلبت إجازة منذ فترة و لكن الظروف لم تكن تسمح بذلك، و قد احتجنا في المركز الإعلامي لأن نرسل مجموعة من المواد إلى العاصمة، فاستغليت هذه المناسبة للقدوم إلى هنا مع طائرة النقل الحربية، فأقضي مهمة لصالح العمل و ثم اخذ إجازة

لمدة أسبوعين.

-كيف أوضاعكم في الشمال؟

-الحقيقة الوضع صعب ، و لكن سأكشف لك سراً لا يعرفه الكثيرون، لقد أرسلت القيادة أحد ألمع الضباط إلى الشمال في مهمة لفتح طريق بري لعاصمة الشمال، و الاستعدادات قد اكتملت و قريباً سنسمع أخباراً طيبة من الشمال، و أظن أنني سأتمكن من الرجوع إلى الشمال بعد انتهاء إجازتي بالبر و ليس عبر الطيران الحربي.

-كيف خطر على بالك أن تتصل بي؟

-أولا أنت دائماً في البال، لكن تعرف التغطية الخليوية في الشمال شبه معدومة مع أنهم يوعدوننا دائماً أنها ستتحسن خلال الأيام القادمة، عندما وصلت المطار العسكري قالوا لنا أن حافلة المبيت العسكرية ستأتي بعد ساعتين لتقلنا من المطار إلى العاصمة، و حيث أنني اذكر في آخر اتصال جرى بيننا أنهم قد عينوك في إدارة الحسابات المركزية للجيش، و أنك تقوم بمهمات ميدانية في ريف العاصمة، فتوقعت أنك لربما تكون في مكان ما قريب مني فاتصلت بك.

-هل تعرف أنني منذ ستة أشهر في مهمة مستمرة و لم آتي إلى العاصمة إلا منذ أسبوع، حسناً دعنا من ذلك الأن، أين تنوي أن تقيم في فترة إجازتك؟

-تعلم أنني قد اجرت شقتي، و كما أنني لا أرغب كثيراً بضيافة أهلي، فوالدي لديه زوجة و أولاد و لا أرغب أن أثقل عليهم، فسأبحث عن أوتيل يكون سعره و خدماته معقولة.

-هذا الأوتيل موجود.

-حقاً؟

-نعم أوتيل كمال الجردي و اخوانه.

ضحك الصديقان على هذه الطرفة، في تلك الأثناء وفي أثناء اجتيازهم لطريق المطار أخذ خليل ينظر إلى الجنبات، ثم قال:

-لم يتغير الطريق كثيراً ظننت من خلال ما يصلنا من الأخبار أنني سأرى طريقاً مدمراً أو محروقاً، لا أعلم..

-لا يغرك منظر الطريق، القوات الحكومية منتشرة على الجانبين و معها دبابات و قناصون ستراهم بعينك بعد قليل، يحاول المسلحون الهجوم على الطريق بشكل

متواصل و نحاول نحن أن نزيد مسافة الأمان على الجانبين، الآن هدأت الأمور تقريباً و لكن للمعارضة مواقع تمركز قوية في محيط المطار و طريقه.

-نسمع في الشمال أخباراً من إعلام المعارضة تارة أنهم استولوا على طريق المطار أو قطعوه، و تارة أنهم احتلوا أجزاءً من المطار و منعوا الطيران المدني من الهبوط.

-كما تعرف هم يكذبون أو قل يضخمون الحدث حتى تضيع الحقيقة في بحر من الكذب، لقد حاولوا مراراً قطع الطريق و لكن لم يستطيعوا ذلك ابداً، لكن هناك خطر القنص حيث قتل العديد من المسافرين على الطريق، حيث تم استهدافهم من مآذن الجوامع في البلدات المحيطة بالطريق أو من الأبنية السكنية العالية.

-و هل ما زال خطر القنص قائماً؟

-نظرياً نعم، فمواقعهم قريبة و يمكن في أية لحظة أن يتسلل قناص إلى نقطة مشرفة على الطريق و يستهدف المركبات فيه، و لكن عملياً لقد وجهنا لهم ضربات مؤلمة في كافة مناطق تواجدهم حتى شلينا حركتهم تقريباً، أما بالنسبة للطيران المدني في المطار فكل شركات

الطيران أوقفت رحلاتها إلى مطارنا، و لم يبقى غير شركة الطيران الوطنية، و هي لا تملك سوى عدد محدود من الطائرات تغطي عدداً من المحطات في المحافظات و في الدول القريبة و التي ما زالت تربطنا بها علاقات جيدة نوعاً ما، أه.. صحيح منذ فترة أطلق المعارضون عدداً من الصواريخ على المطار فأنفجر أحد خزانات وقود الطيران، و سمعت كل العاصمة صوت الانفجار، كما و تكسر الزجاج في مبنى المطار، اما ماعدا ذلك فالأمور بخير، و ما زال المطار يعمل، و لكن كما يقال: سافر برعاية اللّٰه و على مسؤوليتك الشخصية.

قال كمال الجملة الأخيرة بتهكم، في تلك الأثناء كانوا يجتازون بلدة على يسار الطريق خاض فيها الجيش معارك طاحنة ضد المسلحين فظهرت الأبنية المهدمة و المتضررة بشكل واضح.

أوصل كمال خليلاً إلى مبنى التلفزيون، حيث دخل كمال لمدة نصف ساعة سلم خلالها المواد المرسلة من المركز الإعلامي في الشمال و رجع إلى كمال فانطلقا إلى منزل كمال.

في هذه الليلة اجتمع الأصدقاء الأربعة و لم يتوقف ضحكهم و أصوات سهرهم إلى ما بعد منتصف الليل، بعد أن غادر عابد و حنا ، قام كمال بتجهيز ركوة قهوة له و لخليل، دخل إلى الداخل و عاد و بيده شيء وضعه امام خليل، استغرب خليل:

-ما هذا؟ مسدس.

-نعم.

-ما شاء اللّه يبدو من شكله و صناعته أنه قطعة نادرة، هل أصبحوا يوزعون عليكم هكذا أسلحة؟

-لا ما زلنا نحصل على مسدسات مكاروف الثمانية و نصف، لا هذا مسدس براوننيغ صناعة بلجيكية و من الدفعات الحديثة، هذا من الغنائم الحربية.

-لما جلبته؟

-هذا كما قلت لك غنيمة حرب، لم أسلمه لأنه غالي علي..

-هل قيمته كبيرة؟

-المعنوية أكثر من المادية.. باختصار هذا المسدس كان مع عبد الرحمن العبدي.

شف كمال شفة من فنجان القهوة ثم أكمل الحديث:

-لا تخف هو ما زال على قيد الحياة حسب ما اعتقد، و لكن لا أعرف إذا كان يستحقها أم لا، منذ فترة وقع أسيراً بيدي في أحد المعارك فتركته يذهب، هذا الحديث لم أخبر به أحداً في الدنيا سواك، لأنك الوحيد الذي أثق به كما أثق بنفسي.

قال خليل بهدوء و هو يسترجع انفاسه:

-لا أعرف ماذا أقول لك، لكن حسناً فعلت..

-لو كنت قتلته في معركة و لم اعرف من هو لم أكن لأتأثر كثيراً، و لكنني وجدته مصاباً يزحف، صعب علي أن اقتله، احسست أنني سأقتل شيئاً في داخلي، كانت المعادلة أن تقتل رفيق طفولتك و الذي هو بمثابة أخ لك أو أن ترتكب ما هو بعرف الجيش خيانة، أخذت سلاحه و تركته يذهب و لم أخبر أحداً بالموضوع.

-حسناً ما فعلته، لا تخبر أحداً بهذا الأمر أبداً و اعتبر أن الموضوع مات هنا، أنت فعلت بأصلك، أما هو فليكن الرب هادياً له .

في صباح اليوم التالي أيقظ كمال خليلاً مبكراً.

-يالله صباح الخير تعال نشرب متة

نهض خليل متثاقلاً و بعد ان غسل وجهه دخل إلى غرفة الجلوس حيث كان كمال قد أعد عدة المتة.

-انا لست متفاجأً أن الجيش قد غيرك و أصبحت تستيقظ باكراً، و لست متفاجأً انك أصبحت تشرب المتة، و لكن ليس على الريق، أين قهوة الصباح التي كنت لا تبدأ يومك إلا بها؟

-ستأتي في وقتها، الأول نشرب المتة، لعلمك المتة ليست مشروباً بقدر ما هي طقس اجتماعي..

بعد أن دارت كأس المتة بين الصديقين عدة مرات، تكلم خليل:

-أريد ان استشيرك في أمرين.

-من الصباح يا فتاح يا عليم تفضل..

-روزا..

-ما بها؟

-ماذا تقصد ما بها، أنسيت أنها زوجتي و أنها قد وَلِدت منذ أكثر من نصف سنة و أنا لم أرى ابنتي بعد؟

-لم أنسى، هذه سهلة إما أنت تشتري تكت و تذهب

إليها و إما هي تأتي إليك ما المشكلة؟

-المشكلة أنني من الصعب أن أحصل على إجازة خارجية في هذا الوقت، أما هي فخائفة جداً من الوضع لدينا، ليست خائفة على نفسها فهي جريئة جداً و تنتظر فقط إشارة مني لتأتي، و لكن هي خائفة على الطفلة، و إذا أردت بشكل أدق أنا من يخاف على الصغيرة.

-هذه البلاد بها ملايين الأطفال، مات بعض الأبرياء الصغار نعم و لكن جل الصغار بخير، المدارس تعمل، الطعام و الدواء موجود، ابعث خلفهما و اتكل على الله، لهما بسعر باقي الشعب.

-هذه المشكلة أفكر بها ليل نهار، و هناك موضوع أخر لم أخبر به أحداً.

-تفضل.

قال كمال مشجعاً.

-ما قبل الأزمة كنت تعرفت على إعلامي خليجي يدعى فهد، و منذ ما قبل الأزمة و هو يشجعني على الانتقال إلى الخليج، منذ عدة أشهر عين رئيساً لقناة فضائية إخبارية في الخليج مع ميزانية ضخمة، أرسل لي عرضاً لكي

أكون من العاملين في القناة، الرقم الذي حدده لي كراتب خرافي، و ها أنا في حيرة من أمري، هل أبقى هنا في بلادنا براتب -بعد أن تدهورت القدرة الشرائية للعملة الوطنية -لا يكفيني أن أعيل أسرتي، في بلاد لا أستطيع أن أطمئن فيها على زوجتي أو ابنتي أن تخرجا إلى الشارع مخافة شظية هاون أو رصاصة طائشة، أنا نفسي أعمل كمراسل حربي أتعرض لخطر الموت كل يوم، أم أذهب إلى الخليج، العرض يتضمن السكن و السيارة و إجازة سنوية لمدة شهر مع بطاقات الطائرة إلى أية وجهة أرغب بها مع عائلتي، الراتب إذا قيمته بأسعار العملات اليوم هو عشرين ضعف راتبي الحالي، إذاً ما رأيك؟

لم يجاوب كمال مباشرة بل اطرق يفكر و أنشغل بتسخين إبريق الماء.

أكمل خليل:

-بالنسبة لي هذا خيار صعب، منذ بداية الحرب في بلادنا و أنا اشعر بنفسي جندياً يخدم البلاد، في أحيان كثيرة لعلمك حملت السلاح مع الجنود، حوصرت في مواقع متقدمة و كان من الممكن أن اقتل، لم يعني لي

الأمر شيئاً، و لكن اليوم أنا لا استطيع أن أرى عائلتي، ابنتي ولدت في الغربة و لم أرها بعد، هذا ما يشغل بالي.

خاتمة وكمقدمة لما سيأتي

بعد أسبوع أجرى كمال عملية جراحية في يده، و بعد شهر التحق بقطعته العسكرية، خليل أرسل خلف روزا حيث امضت أسبوعين في البلاد قدم خلالهما كمال شقته لهما، كان من أجمل لحظات حياة خليل و هو يرفع البنت الصغيرة و التي سماها باسم شام و يقول لكمال:

-أنظر .. أليست تشبهني؟

بعدها عادت روزا و الصغيرة إلى بلادها على أمل العودة القريبة للاسقرار في أقدم بلاد اللّه، بعد أن ودعهما عاد خليل إلى عاصمة الشمال براً عبر الطريق الذي فتحه الجيش مؤخراً.

الفهرس